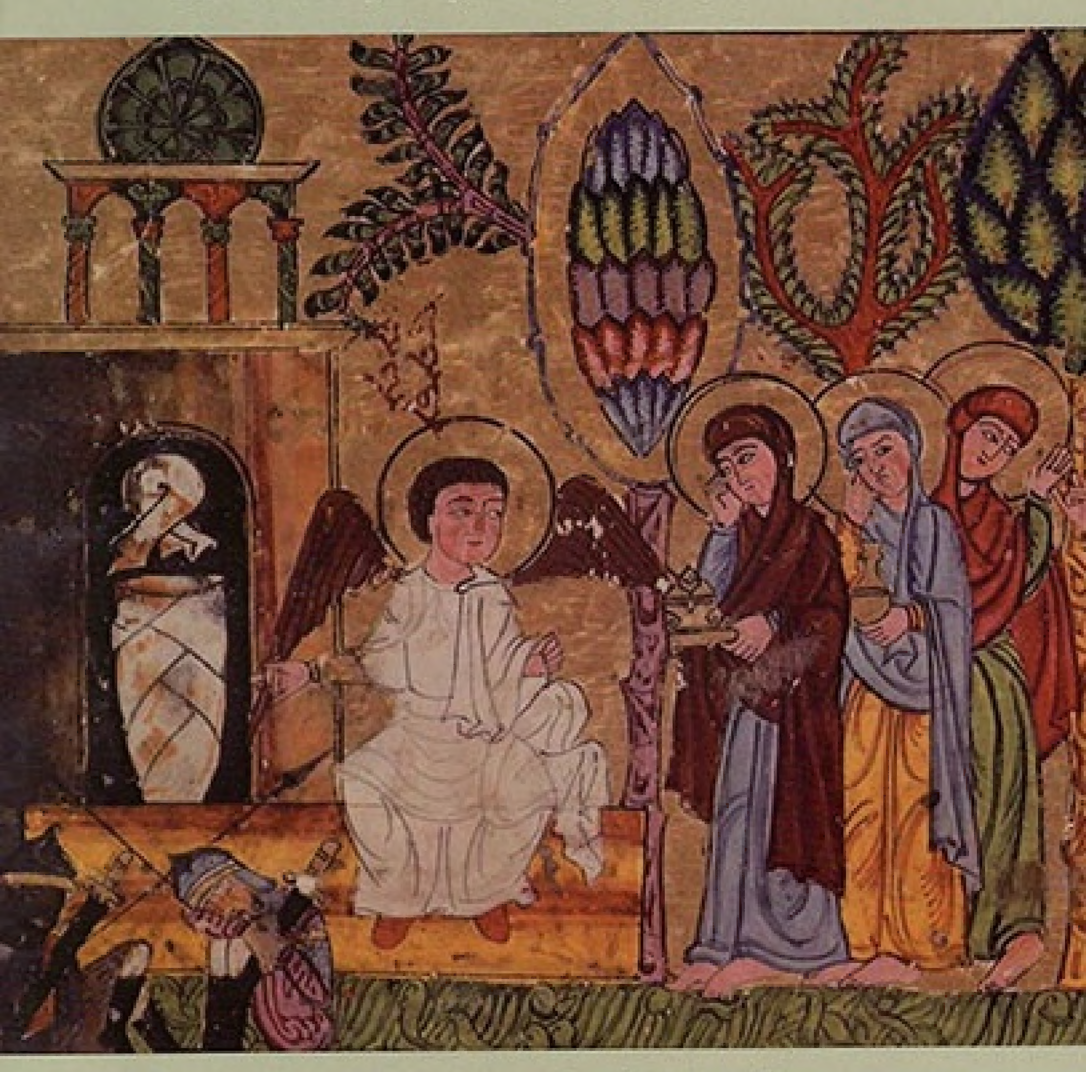
TAYSEER KHALAF

رحلات البطريرك ديونيسيوس التلمحري

في عهد الخليفتين المأمون والمعتصم

◆ الكتاب الحائز على جائزة ابن بطوطة لتحقيق المخطوطات 2013-2014



جمعها وحققها وعلق حواشيها: تيسير خلف

رحلات البطريرك ديونيسيوس التلمحري

في عهد الخليفتين المأمون والمعتصم



رحلات البطريرك ديونيسيوس التلمحري في عهد الخليفتين المأمون والمعتصم/ رحلات
جمعها وحققها وعلق حواشيها: تيسير خلف/ كاتب من سوريا
الطبعة الأولى، 2014





دار السويدي للنشر والتوزيع
أبو ظبي ، ص. ب : 44480 ، الإمارات العربيّة المتّحدة
هاتف 00971 2 6322079
فاكس 00971 2 6214311
e-mail: nouri.aljarah@gmail.com

المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر
المركز الرئيسي :
بيروت ، الصنايع ، بناية عيد بن سالم ،
ص.ب 11-5460 ،
هاتفاكس 00961 1 752308 / 751438

التوزيع في الأردن :
دار الفارس للنشر والتوزيع
عمّان ، ص.ب 9157 ، هاتف 00962 6 5605432 ، هاتفاكس 00962 6 5685501
e-mail: info@airpbooks.com
موقع الدار الإلكترونيّ : www.airpbooks.com

تصميم الغلاف : ناصر بخيت / السودان
الصفّ الضوئي : القرية الإلكترونيّة / أبو ظبي + المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر / بيروت ، لبنان
التنفيذ الطباعيّ : ديمو برس للطباعة والتجارة / بيروت ، لبنان

ISBN: 978-614-419-358-7

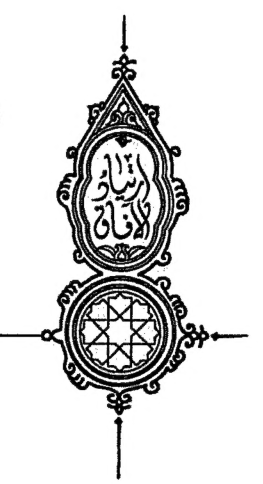
الكتاب الحائز على جائزة ابن بطوطة لتحقيق المخطوطات 2013-2014



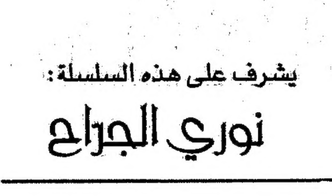
رحلات البطريرك ديونيسيوس التلمحري

في عهد الخليفتين المأمون والمعتصم

جمعها وحققها وعلق حواشيها: تيسير خلف






يشرف على هذه السلسلة:
نوري الجراح

"ولما رحلنا من دمشق وبلغنا المدينة المصرية الأولى التي تدعى الفرما في شهر شباط، استدعاني الخليفة المأمون بواسطة الفضل المشرف على شؤون المملكة. ولما دخلت عليه صافحني كالعادة وقال: لقد سمعت أيها البطريرك بتمرد المسيحيين الأقباط المعروفين باسم البياميين (...) اصطحب الأساقفة الذين معك وجماعة من المصريين، وسافر إلى المتمردين وأعطهم تعهداً بالأمان، وليحضروا مع قواتهم إلى المكان الذي اختاره لإقامتهم، وإن لم يذعنوا أهلكتهم بحد السيف."

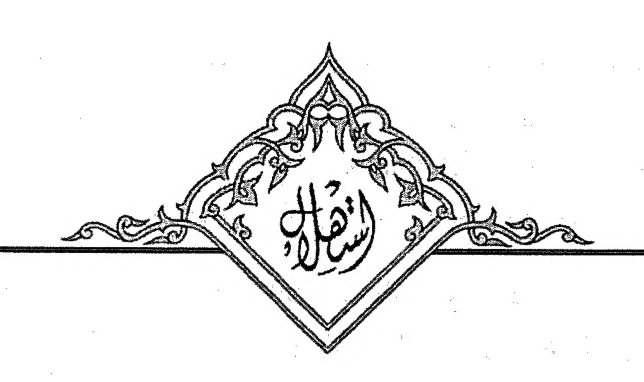
نص الرحلة ص 80

"..بعد ذلك إذن لي الخليفة بالذهاب إلى دمشق. وبعد رحيلنا استدعى المأمون زعماء المتمردين وأمرهم بمغادرة تلك المنطقة، فأطلعوه على سوء المعاملة التي لاقوها، ويخشون، إذا غادروا، أن لا يجدوا مورداً لمعيشتهم لأنهم يعتمدون على القصب وصيد الأسماك، غير أنهم أذعنوا له أخيراً وغادروا بالسفن إلى أنطاكية ومنها إلى بغداد، وكان عددهم نحو ثلاثة آلاف وقد مات كثير منهم في الطريق، واستعبد الأسرى منهم، وعددهم نحو خمسمائة نفس، للمسلمين الذين أخذوهم إلى دمشق وباعوهم هناك، الأمر الذي لم يجر من قبل في بلاد المسلمين، أي بيع من يخضع للجزية."

نص الرحلة ص 83

"...وقد حدثت قصص غريبة إذ عرض الذين ربطوا وسيقوا للقتل، رشوة على الذين يقودونهم مقابل إطلاقهم، فقالوا لهم: لقد تم تسليمكم لنا بالعدد، فتريثوا ريثما نأسر من نصادفهم في الطريق ونطلقكم. فلاقاهم ثلاثة رجال، قسّ ومسلمان، كان أحدهما إماماً للمسجد، فقبض عليهم بدلاً عمّن دفع الرشوة، وإذ لم يفسح لهم المجال أن يتكلموا، قتلوا، وهكذا كانت جثث القتلى الأبرياء تملأ الطرق . وفي هذه الفترة، انتشرت في مصر الحروب والسبي والجوع والأوبئة."

نص الرحلة ص 84



مكتبة عربية لأدب الرحلة، وأدب اليوميات ... من كان يصدق؟ موسيقى لا تهدأ، وصخب لا ينتهي، وسطور الرحالة مدونات هي لوحات فنية مدهشة ومشاعر حميمة وخلجات وجدانية فياضة، خواطر وانطباعات وصور ترصد المرئيات، حدس شاعري وابتكار فني وجمال في التعبير، خيال يعانق الواقع ويوقظ الذاكرة فيأتي بالممتع والمدهش. مرايا تتعاكس، بلدان قريبة وبعيدة، أماكن جديدة وزوايا لم تستكشف يرتادها عاشق مغامر كما يسري تحت جناح الليل للقاء الحبيبة. وهو لا يكتفي بعناقها والبوح بمكنونات قلبه وفكره إليها، بل يستغرق في ملامحها، يناجيها ويسعد باستجلاء خفاياها وكأنه يتأمل نفسه في مراياها... تلك هي الرحلة، ومن هنا يبدأ الاكتشاف والتغيير، اكتشاف المكان واكتشاف الذات سعيا وراء فهم حقيقي لها. هكذا تنبثق الرؤى من معاشرة المدن والأنهار والجبال، وترتسم في صياغات جديدة للوجدان والنظر والتعبير في نصوص حية عابرة للزمان كما هي عابرة للمكان.

بدأنا برحلة، وقلنا إننا سنختم معاً مائة رحلة، أما وقد وقفنا على أعتاب الكتاب الـ340 كتابا، فأي بهجة هذه..

إنني لأحيي أولئك المغامرين القدامى من أبطال الرحلة، فرسانا امتطوا صهوات الجياد واقتحموا غمار الموج، سالكين دروب الدهشة والخطر؛ وأتطلع بفرح غامر إلى هذه الكوكبة الجديدة من الرحالة المعاصرين، الذين واكبوا مشروع "ارتياد الآفاق" وتألقوا في مسالكه. أطالع عشرات الأسماء والعناوين التي تزدان بها أغلفة الكتب، وهي تنقلنا بين المدن والبلدان والقارات، هؤلاء هم غواصو لآلئ

الرحلة العربية ومبدعو أدبها الروائي الجميل. إنهم ثروة الأمة من الناظرين في كل جهات الأرض، وسفراؤها إلى العالم، العائدون بالرؤى والمعارف والخبرات، أهل المشاهدة وأهل الحوار مع الآخر بصفته أنا أخرى وشريكا على هذا الكوكب.

في أسواق المدن وأكشاك المطارات والموانئ ومحطات القطار نمر بألوان من كتيبات السياحة وصور المنتجعات وإعلانات الفنادق وشركات السفر. هذا شيء آخر غير أدب الرحلة؛ واليوم، فإن المكتبات الحديثة المنتشرة بين المدارس والجامعات والمراكز الثقافية لم يعد في مقدورها أن تستغني عن كنوز أدب الرحلة وروائعها، بل أفردت لها رفوفا خاصة بها.

الرحلة، كما آلت إليه، سفر في الأرض وسفر في المخيلة، وبالتالي فإن نصوصها مغامرة في اللغة وفي الوجود.

تَهْدفُ هذه السّلسلةُ بَعْثَ واحدٍ من أعرقِ ألوانِ الكتابةِ في ثقافتنا العربية، من خلال تقديم كلاسيكيّاتِ أدبِ الرِّحلةِ، إلى جانب الكشف عن نصوصٍ مجهولةٍ لكتاب ورحّالة عربٍ ومسلمينَ جابوا العالم ودوّنوا يوميّاتهم وانطباعاتهم، ونقلوا صوراً لما شاهدوه وخَبِروهُ في أقاليمه، قريبةً وبعيدةً، لاسيما في القَرنين الماضِيين اللذين شهدا ولادة الاهتمام بالتجربة الغربية لدى النُّخب العربية المثقفة، ومحاولة التعرّف على المجتمعات والنّاس في الغرب، والواقع أنه لا يمكن عزل هذا الاهتمام العربي بالآخر عن ظاهرةِ الاستشراق والمستشرقين الذين ملأوا دروبَ الشَّرقِ، ورسموا له صوراً ستملأ مجلدات لا تُحصى عدداً، خصوصاً في اللغات الإنكليزية والفرنسية والألمانية والإيطالية، وذلك من موقعهم القوي على خارطة العالم والعلم، ومن منطلق المستأثر بالأشياء، والمتهيء لترويج صور عن "شرق ألف ليلة وليلة" تغذّي أذهان الغربيين ومخيّلاتهم، وتُمهِّدُ الرأي العام، تالياً، للغزو الفكري والعسكري لهذا الشرق. ولعل حملة نابليون على مصر، بكل تداعياتها العسكرية والفكرية في ثقافتنا العربية، هي النموذجُ الأتمُّ لذلك. فقد دخلت المطبعة العربية إلى مصر مقطورة وراء عربة المدفع الفرنسي لتؤسس للظاهرة الاستعمارية بوجهيها العسكري والفكري.

وإذا كان أدب الرحلة الغربي قد تمكن من تنميط الشرق والشرقيين، عَبْرَ رسمِ صورٍ دنيا لهم، بواسطة مخيِّلةٍ جائعةٍ إلى السِّحري والأيروسيِّ والعجائبيِّ، فإن

أدب الرحلة العربي إلى الغرب والعالم، كما سيتَّضِحُ من خلال نصوص هذه السلسلة، ركّز، أساساً، على تتبع ملامح النهضة العلميَّة والصناعيَّة، وتطوّر العمران، ومظاهر العصرنة ممثلة في التطور الحادث في نمط العيش والبناء والاجتماع والحقوق. لقد انصرف الرَّحالة العرب إلى تكحيل عيونهم بصور النهضة الحديثة في تلك المجتمعات، مدفوعين، غالباً، بشغف البحث عن الجديد، وبالرغبة العميقة الجارفة لا في الاستكشاف فقط، من باب الفضول المعرفي، وإنما، أساساً، من بابِ طَلَبِ العلم، واستلهام التجارب، ومحاولة الأخذ بمعطيات التطور الحديث، واقتفاء أثر الآخر للخروج من حالةِ الشَّلل الحضاريِّ التي وجد العرب أنفسهم فريسة لها. هنا، على هذا المنقلب، نجُد أحد المصادر الأساسية المؤسِّسة للنظرة الشرقية المندهشة بالغرب وحضارته، وهي نظرة المتطلِّع إلى المدنيَّة وحداثتها من موقعه الأدنى على هامش الحضارة الحديثة، المتحسِّر على ماضيه التليد، والتّائق إلى العودة إلى قلب الفاعلية الحضارية.

إن أحد أهداف هذه السّلسلة من كتب الرحلات العربية إلى العالم، هو الكشف عن طبيعة الوعي بالآخر الذي تشكَّل عن طريق الرحلة، والأفكار التي تسرّبت عبر سطور الرَّحالة، والانتباهات التي ميَّزت نظرتهم إلى الدول والناس والأفكار. فأدب الرحلة، على هذا الصعيد، يشكِّل ثروةً معرفيَّةً كبيرةً، ومخزناً للقصص والظواهر والأفكار، فضلاً عن كونه مادة سرديّة مشوّقة تحتوي على الطريف والغريب والمدهش مما التقطته عيون تتجوّل وأنفسٌ تنفعل بما ترى، ووعي يلمُّ بالأشياء ويحلِّلها ويراقب الظواهرَ ويتفكَّرُ بها.

أخيراً، لابد من الإشارة إلى أن هذه السّلسة تؤسس، وللمرة الأولى، لمكتبة عربية مستقلّة مؤلّفة من نصوص ثريَّة تكشف عن همّة العربيِّ في ارتيادِ الآفاقِ، واستعداده للمغامرة من بابِ نَيل المعرفةِ مقرونةً بالمتعةِ، وهي إلى هذا وذاك تغطي المعمور في أربعِ جهات الأرض وفي قارّاته الخمس، وتجمع إلى نشدان معرفة الآخر وعالمه، البحث عن مكونات الذات الحضارية للعرب والمسلمين من خلال تلك الرحلات التي قام بها الأدباء والمفكرون والمتصوفة والحجاج والعلماء، وغيرهم من الرَّحالة العرب في أرجاء ديارهم العربية والإسلامية.

ختاما، أحيي رحالة من طراز آخر، هم المثقفون القائمون على مشروع ارتياد الآفاق والعاملون فيه والمتحلقون حوله من الباحثين الذين استكشفوا هذه المنطقة المطموسة والمغفلة من ثقافتنا العربية بقدرات المغامرين من العلماء ودأب المستكشفين، فالتمسوا المخطوطات والنصوص النادرة في مكتبات العالم ورجعوا بها كما يرجع الغواصون باللآلئ، وسهروا على فك رموزها وتحقيقها وإخراجها إلى النور ليكون لنا من وراء جهودهم المضيئة مكتبة متعاظمة من أدب الرحلة ما تزال عناوينها تتوالى وسلاسلها تتعدد، ليكون في وسع ثقافتنا العربية أن تبرهن من خلال هذا اللون الممتع والخطير من الأدب أنها ثقافة إنسانية فتحت نوافذها على ثقافات العالم وتجارب شعوبه، ودون رحالتها مشاهداتهم وثائق أدبية وتاريخية ترقى إلى ما يربو على ألف من السنين، فأنجزوا مع ريادتهم الآفاق ريادتهم في أدب السفر.

فهنيئا للقارئ العربي الجاد بهذه المكتبة الجديدة، وللأجيال التي ستقرؤنا بعد مائة عام.

محمد أحمد السويدي

تمهيد

ينفرد النص الذي تركه البطريرك السرياني ديونيسيوس التلمحري المعاصر لأربعة خلفاء من بني العباس، هم هارون الرشيد، ومحمد الأمين، وعبد الله المأمون، وأبي إسحاق محمد المعتصم، بأنه الشهادة المعاصرة الوحيدة على الكثير من الوقائع والأحداث التاريخية المفصلية، والتي دونت وقائعها في كتب التاريخ العربية نقلاً عن روايات شفهية بعد عقود طويلة، لعل أقربها ما دونه خليفة بن خياط العصفري في تاريخه المسمى (تاريخ خليفة بن خياط)، أو أبو جرير الطبري في كتابه المسمى (تاريخ الرسل والملوك)، أو أحمد بن أبي إسحاق اليعقوبي في تاريخه المسمى (تاريخ اليعقوبي).

لقد قام البطريرك التلمحري بثلاث رحلات إلى بغداد ورحلتين إلى مصر، دوَّن وقائعها بشكل متفاوت.. وبينما أسهب في رحلتيه إلى مصر بذكر أوصاف الأماكن التي زارها، وتحدث عن بعض العادات التي عاينها لدى المصريين، نجده في رحلاته إلى بغداد وبلاد الجزيرة، مشغولاً بالقضايا الرعوية والصراعات المحتدمة في الكنيسة السريانية، ماراً على ذكر الأماكن مرور الكرام.

ومع ذلك نجده قدم رسماً غاية في البراعة والصدق لعدد من الشخصيات المؤثرة في حركة التاريخ، مثل الخليفة المأمون، والخليفة المعتصم، والأمير عبد الله بن طاهر، والقادة العسكريين، أمثال الأفشين حيدر أو خيذر بن كاوس، وعجيف بن

عنبسة،، وعثمان بن ثمامة العبسي. وأيضاً زودنا بمعلومات نادرة عن بعض الثائرين على الخلافة العباسية أمثال المبرقع الكردي الشهير بالمهدي، وتميم أبو حرب الشهير بالمبرقع اليماني، وابن بيهس الدمشقي، ونصر بن شبث العقيلي، وغيرهم ممن رسموا ملامح ما أطلق عليه اسم العصر العباسي الأول، أو العصر الذهبي للخلافة العباسية.

ولئن ضمّن البطريرك أخبار رحلاته في تاريخه الذي وضعه في جزئين، متناولاً أخبار الدولتين العربية الإسلامية والبيزنطية بالإضافة إلى أخبار الكنيسة، فإن الجزء المتعلق بشهادته الشخصية على أحداث زمنه، امتاز بعدد من المزايا التي جعلته واحداً من أرفع النصوص السريانية وأكثرها صدقاً وحرارة، نظراً لاعتماده لغة وجدانية تعتمد في صياغتها ضمير المتكلم والتجربة الذاتية، وهي الصيغة التي يعتمدها أصحاب كتب الرحلات عادة.

التلمحري وتاريخه ورحلاته

ولد البطريرك ديونيسيوس التلمحري في بلدة تلمحرة من أعمال الرها عاصمة السريان الثقافية والحضارية، في الجناح الغربي من أجنحة المدى السرياني المنتشر على جانبي حوض الفرات.

عشق الحياة الرهبانية فانتسب إلى دير قنسرين ذائع الصيت غربي مدينة حلب، واتشح فيه بالأسكيم الرهباني. وفي وقت كانت الخلافات والانشقاقات تعصف بالكنيسة السريانية، تم تنصيب الراهب التلمحري عام 818م بطريقة وصفها هو في مقدمة مذكراته وأخبار رحلاته. وقد أمضى حياته محاولاً توحيد الكنيسة السريانية وإعادة المتمردين إلى حياضها، وقد انتقل إلى ديار ربه عام 845م.

وضع البطريرك التلمحري تاريخاً في جزئين وطواه على 16 مقالة، ثماني مقالات في كل جزء، مقسمة إلى فصول. وقد كتبها تلبية لرغبة إيوانيس مطران دارا، وضمنها كل ما جرى خلال مئتين واثنتين وستين سنة، بدءاً من حكم الإمبراطور موريقي (موريس)، أي سنة 894 يونانية [581م]، وحتى سنة 1154يونانية

[843م]، وهي السنة التي توفي فيها الخليفة المعتصم أبي إسحاق، وثاوفيل ملك بيزنطة[1].

أما تاريخ البطريرك التلمحري، فهو في الحقيقة ذيل على تاريخ قورا البطناني، كما يؤكد هو ذلك في مقدمة الكتاب، الذي استوعبه بالكامل البطريرك ميخائيل الكبير، بما فيه المقدمة.

ومن الواضح أنه اعتمد على مجموعة كبيرة من الوثائق الكنسية، واستوعب كتاب التاريخ الذي وضعه المؤرخ سرجي ابن القائد السرياني في الجيش البيزنطي يوحنا الرصافي، المعاصر لزمن الفتوحات الإسلامية. والمؤرخ المذكور لم يكن بعيداً من الناحية الزمنية عن التلمحري نفسه، وربما فصلت بينهما أجيال أربعة أو خمسة، كما أن صلة قرابة كانت تجمعهما.

وقد انتشر خطأ تاريخ لراهب مجهول من دير زوقنين دعي باسم تاريخ الزوقنيني، ظن بعض المستشرقين خطأ أنه للبطريرك التلمحري، ولكن نظرة سريعة تكفي لاكتشاف أن ذلك التاريخ لا علاقة له بالبطريرك التلمحري لا من قريب ولا من بعيد[2].

وقد ضمن البطريرك التلمحري أخبار رحلاته ومذكراته الشخصية في تاريخه، ولكنه أفرد لها مكاناً مميزاً ومقدمة خاصة وخاتمة مناسبة، أوضح فيهما حيثيات كتابته

---

(1) حسب التلمحري وابن العبري وميخائيل الكبير توفي كل من المعتصم وثاوفيل عام 843م بينما يضع المؤرخون المسلمون الوفاة في اليوم نفسه في 18 من ربيع الأول 227هـ = 5 من يناير 842م.

(2) أصدر الأب سهيل قاشا عام 2006م هذا التاريخ عن المكتبة البولسية، باسم تاريخ الزوقنيني المنحول لديونيسيوس التلمحري، الذي سبق أن ترجمه والده الشماس متى قاشا في فترة سابقة، وفي مقدمته شرح واف حول هذه القضية.

هذه النصوص المتعلقة بتجربته الشخصية، وضمنها الكثير من لواعج نفسه وتأملاته.

الرحلات

بدأ البطريرك التلمحري أولى رحلاته إلى بغداد عبر بلاد الجزيرة عام 820م للحصول على فرمان اعتراف بسلطته الكنسية، فحصل على الفرمان بمسعى الأمير طاهر بن الحسين الخزاعي. الذي كان يكن للمسيحيين احتراماً ومحبة خاصين. وكان يود التوجه إلى تكريت، غير أنه بسبب أسقفها المتمرد باسيل، عرّج على الموصل، ثم قصد مدينة قرقيسياء عند مصب نهر الخابور بنهر الفرات جنوبي دير الزور، ثم توجه نحو قرى حوض الخابور، ووصل إلى نصيبين ودارا وكفرتوثا قبل أن يعود إلى مقر إقامته في دير قنسرين.

تلا ذلك رحلته الأولى إلى مصر، التي قصدها هو وشقيقه أثناسيوس، مطران الرها عام 825م للاحتجاج على هدم الكنائس، فنزل من أنطاكية إلى دمشق، فميناء يافا، حيث ركب سفينة أوصلته إلى مدينة تنيس، التي بقي فيها فترة من الزمن واطلع على أحوال أهلها، قبل أن يلتحق به شقيقه المطران الذي أتى عن طريق البر، فالتقى بالبابا يعقوب بطريرك الأقباط، وطاف ببعض مدن الوجه البحري وزار الإسكندرية، قبل أن يلتقي بالأمير عبد الله بن طاهر ويحصل منه على رسائل توصية بإيقاف هدم الكنائس.

رحلته الثانية إلى بغداد، كانت في عام 829م، وكانت بسبب انقسام الكنيسة نتيجة قرار أصدره الخليفة المأمون حول الطوائف والجاليات، والذي يحق وفقه لكل

عشرة أشخاص أن يقيموا عليهم رئيساً، دون أن يحق لأحد معارضتهم.. ويبدو أنه أقام في بغداد فترة طويلة، ريثما استطاع أن يجتمع بالخليفة.

وتكمن أهمية هذه الرحلة في أنها نقل حي للحوار الذي تم بين البطريرك والخليفة، وفيه وصف بارع لشخصية المأمون لا نجده في أي مصدر آخر. وقد غادر البطريرك بعدها بغداد إلى تكريت لحل بعض القضايا الكنسية، قبل أن يغادر إلى سوريا في كانون الأول سنة 830م.

أما رحلته الثانية إلى مصر فهي الأهم على الإطلاق، إذ كلفه بها الخليفة المأمون لكي يقف على أسباب ثورة أقباط إقليم البشروط أو البشرود في الدلتا، ومحاولة إقناعهم بالعدول عن تمردهم.

وقد بدأت هذه الرحلة من دمشق مطلع العام 832م بصحبة الخليفة، وصولاً إلى مصر براً عبر طريق فلسطين القديم. ووصل إلى الفرما، وهناك اجتمع بالخليفة قبل أن يتوجه إلى إقليم البشروط بصحبة بابا الإسكندرية البطريرك يوسف[1]، لكي يتوسطا لإنهاء التمرد. وكانت النتيجة غير مرضية. فعاد إلى دمشق بطريق البر نفسه. وقد قدم أوصافاً مهمة للأهرامات ومدينة الفسطاط ومدينة عين شمس.

الرحلة الثالثة إلى بغداد كانت في عام 834م وسببها تهنئة الخليفة الجديد أبي إسحاق المعتصم، واستمرت أكثر من عام بسبب الانشقاقات الكنسية، إذ لم يزر الخليفة إلا مطلع عام 836م، حيث التقى ملك النوبة جاورجي بن زكريا وتوسط له عند الخليفة، وروى قصة العلاقة بين مملكة النوبة المسيحية ذات العقيدة

---

(1) يسمى في المصادر القبطية يوساب الأول، وهو من مدينة منوف واسمه قبل البطريركية يوسف، تخرج من دير أبو مقار، وبقي في كرسيه 17 سنة و11 شهرا ويومان. وعاصر المأمون والمعتصم والواثق والمتوكل.

الأرثوذكسية [اليعقوبية] مع الخلافة العباسية، وهي معلومات لا نجدها في أي مصدر آخر.

وعموماً، فإن هذه الرحلات، التي كانت تستمر لشهور طويلة، كانت زاداً مهماً للبطريرك في كتاباته، فقد كان يلتقي خلالها كبار الأمراء والقادة والحكام، كما كان يلتقي كذلك رجال الأكليروس والأناس العاديين، ويستمع إليهم ويجادلهم، ولذلك نقل هذه الشهادة النادرة عن أوضاع الخلافة العباسية، وتركيبتها وآليات الحكم فيها، والصفات الشخصية للخلفاء الذين التقاهم.. وهي شهادة تسبق أقدم النصوص العربية التي تناولت هذه المرحلة بحوالي نصف قرن.

هذا الكتاب

يعد النص المتعلق برحلات البطريرك التلمحري الذي اقتبسه البطريرك ميخائيل الكبير أقرب النصوص إلى الأصل، فلم يتدخل البطريرك ميخائيل فيه إلا قليلاً بقصد الاختصار، ولكننا وبمقارنات بسيطة، نجحنا في إكمال بعض هذه النواقص من مصادر عديدة أهمها (تاريخ الرهاوي المجهول)، و(تاريخ الزمان) لابن العبري.

وقد رجعنا إلى النصوص السريانية الأصلية التي استنسخنا منها بعض النسخ من المتحف البريطاني، وكتاب الأسناد السريانية للمستشرق يوحنا شابو، وهو ما ساعدنا على مقارنة ما ورد في الطبعات المختلفة لهذه الكتب وتصويب بعض التسميات التي طمس منها حرف هنا، أو استبدل منها حرف هناك. حتى توصلنا إلى نص يقترب أكثر فأكثر من النص الذي وضعه البطريرك التلمحري. معتمدين على

قواميس عربية - سريانية، وكتب جغرافيا وبلدانيات عربية تناولت الأقاليم المذكورة، بالإضافة إلى كتب التاريخ العربي التي تتناول أحداث تلك المرحلة.

وقد أجرينا عملية تقاطع بين أسماء الأعلام والأماكن في تاريخ الطبري للفترة نفسها، مع ما ورد في نص التلمحري، وكانت التقاطعات مذهلة بتطابقها، وهو ما يعبر عن مصداقية عالية لهذا النص، نظراً لموثوقية تاريخ الطبري بالنسبة للفترة التي يغطيها نص التلمحري. ومع ذلك وجدنا الكثير من المعلومات التي يقدمها البطريرك فريدة في محتواها، وتشرح وتفسر الكثير من المعطيات الغائمة الواردة في كتاب الطبري وغيره من المؤرخين المسلمين، نظراً لنقلهم الأخبار عن رواة متعددين ومتواترين بشكل شفهي.

وقد شرحنا الكثير من الإشارات العابرة والعبارات الغامضة الواردة في النص، والتي ساهمت في فك مستغلقاته، التي استعصت على مترجمي النصوص السريانية أمثال ألبير أبونا مترجم تاريخ الرهاوي المجهول، ومار غريغوريوس صليبا شمعون مترجم تاريخ ميخائيل الكبير. علماً أن الاضطراب أحيانا يكون من الأصل السرياني، نتيجة تلف أصاب بعض أجزاء المخطوطات والتي أدت إلى انمحاء بعض العبارات، أو ضياع الكثير من الصفحات، كما هو الحال في الأصل السرياني لتاريخ الرهاوي المجهول، الذي تبين لنا أنه يضم اقتباسات حرفية كاملة من رحلة البطريرك إلى مصر، ساعدتنا على ترميم بعض النواقص والاختصارات الموجودة في نسخة ميخائيل الكبير. وفيما انطوى اقتباس الرهاوي المجهول على خطأ جغرافي واضح عند حديثه عن ظهور حوت كبير أقلق صيادي اللؤلؤ في البحر الأحمر، تبين لنا أن الحديث يدور عن الخليج العربي، وفقاً لنص ميخائيل الكبير، ولولا الخرم الكبير في الأصل السرياني لتاريخ الرهاوي المجهول، والمتركز في الفترة التي يغطيها

البطريرك التلمحري، لكنا عثرنا على الكثير من المعلومات التي يمكن مقاطعتها مع النص الذي اقتبسه البطريرك التلمحري.

ولزيادة الفائدة قمنا بإضافة خمسة ملاحق إلى الرحلة:

الأول، نص رسالة التنصيب، وهي كتاب التثبيت الكنسي الذي يضعه الأساقفة المشاركون في انتخاب البطريرك.

والثاني، مقالة للبطريرك التلمحري حول مصطلح السريان، يرد فيها على بعض الادعاءات حول عدم وجود مملكة لهم. والطريف في أمر هذا المقال أنه يعتبر ملوك العرب في بلاد الجزيرة، أي ما بين النهرين، أمثال سنطروق ملك الحضر، وأبجر ملك الرها بأنهم آراميون سريان. وهذا دليل على أن العرب الشماليين، كانوا من ضمن النسيج الآرامي المتنوع والغني في البلاد السورية بفرعيها الشام والجزيرة.

والثالث، نص رواية البطريرك التلمحري لمعركة عمورية وأسبابها ونتائجها، ومختلف تفاصيلها. ومع أن هذه المعركة لا تعد من المعارك الفاصلة أو الحاسمة في التاريخ، إلا أن قصيدة أبي تمام، والأبعاد الرمزية التي أسبغتها عليها جعلتها حاضرة في الأذهان، بسبب تفسير أحد أبيات القصيدة على أنه استنجاد امرأة من مدينة زبطرة بالمعتصم عندما سباها جند الملك ثيوفيل. فالتلمحري يقدم وجهة نظر في هذه المعركة تختلف إلى حد ما عن النصوص التاريخية الواردة بشكل مسهب جداً في كتب الطبري، وإلى حد ما عند اليعقوبي وخليفة ابن خياط.

والملحق الرابع، خصصناه لقصيدة أبي تمام فتح عمورية، لما لها من أهمية تاريخية اعتمد بعض المؤرخين والإخباريين اللاحقين عليها لبناء قصص وأساطير حول هذه المعركة.

أما الملحق الخامس، فيتضمن نص رحلة قام بها راهب فرنسي يدعى برنار الحكيم، في عهد الخليفة المعتز إلى مصر وفلسطين، وفيها تفاصيل حول الحكم والإدارة في مصر خلال تلك الفترة، وحالة السلام التي تعيشها البلاد على الرغم من تسلط حكام الأقاليم. وهي تشكل إضافة على الصورة التي تقدمها رحلات البطريرك التلمحري، ولو أنها تمت بعد حوالي عقدين من وفاة البطريرك.

عن الثورات والثوار

تنطوي أخبار رحلات البطريرك التلمحري ومذكراته على الكثير من المعطيات حول الثورات التي كانت تشتعل في جميع أصقاع شرقي المتوسط، والسبب في ذلك مجموعة من العوامل أدت في نهاية المطاف إلى تآكل مركزية الدولة، وتحول الخليفة إلى سلطان معنوي ليس أكثر، مع أن سلطة الخليفة كان يشوبها الكثير من النواقص أثناء الفترة الذهبية ذاتها، بسبب تمركز القوة العسكرية بيد القادة القادمين من خراسان، والتي ذهبت في الفترة اللاحقة كلياً إلى القادة الترك، الذين بدؤوا يعززون مواقعهم خلال حكم المعتصم ومن أتى بعده.

ثورات عرب الشام والجزيرة

وكان لصعود طبقة الموالي من الفرس على وجه الخصوص، خلال فترة حكم هارون الرشيد ومن بعده المأمون والمعتصم، واحتكارها لوظائف الدولة الحساسة كقيادة الجيش والشرطة والقضاء والخراج، نتيجة حصول أفرادها على التعليم والتدريب اللازمين، كان لذلك، السبب الرئيس في شعور العرب بالغبن الشديد، وتحولهم إلى محاربة الدولة، وخصوصاً في بلاد الشام والجزيرة، واللتين كان العنصر العربي قد تناقص فيهما بشكل كبير نتيجة مذابح أبو مسلم الخراساني وقواده، والتي

أسهب في الحديث عنها المؤرخون المسيحيون[1]، الذين كانوا يسمون الأشياء بمسمياتها، وليس أدل على ذلك من الإصرار على تسمية جيوش الخليفة بالفرس.

وقد وثق لنا البطريرك التلمحري ثائران من عرب الشام والجزيرة هما: نصر بن شبث العقيلي في الجزيرة العليا وكيليكية، والذي قيل إنه كان ثائراً للعصبية العربية. وكذلك ابن بيهس في جند دمشق، وحليفه المبرقع اليماني أبي حرب في جند فلسطين، والذي كان يستلهم الحقبة الأموية، حتى أن البعض كان يدعوه بالسفياني، تلك الشخصية الخرافية التي اخترعها مؤيدو الأمويين، كرد على فكرة المهدي المنتظر. ولا شك في أن هذه الفكرة كانت تحظى بالكثير من المتحمسين، إذ ظهر في الشام خلال الحقبة العباسية الكثيرون ممن ادعوا أنهم السفياني المنتظر.

ثورة الكرد

وتنطوي رحلات ومذكرات البطريرك التلمحري على معطيات جديدة عن ثورة بابك الخرّمي، الكردي، والتي اعترى أخبارها في المصادر العربية الإسلامية الكثير من الاضطراب والاتهامات الجزافية، فقد أظهر البطريرك أن بابك هو ثالث زعماء الثورة الكردية، التي بدأها المبرقع الكردي الذي أطلق على نفسه لقب المهدي، والذي ورثه ابنه هارون قبل أن يموت، ليتسلم الزعامة من بعده بابك الخرّمي. وكان واضحاً على هذه الثورة طغيان الفكرة المهدية، التي انتشرت في تلك الآونة، حتى قبل ولادة الإمام الحادي عشر الحسن بن علي العسكري والد الإمام الغائب محمد بن الحسن العسكري، الذي أطلق عليه لقب المهدي في العقيدة الإثني عشرية.

---

(1) حول هذا الموضوع يمكن العودة إلى تاريخ أسقف منبج للروم الارثوذكس أغابيوس المنبجي، وتاريخ ميخائيل السرياني الكبير وتاريخ الزوقيني المنحول بشكل خاص.

ولعل اللافت في ثورة أتباع المبرقع الكردي، وفي فترة بابك على وجه الخصوص، اعتمادهم بشكل كامل على دعم الروم البيزنطيين، وهي الذريعة التي اتخذها قادة الدولة العباسية للقضاء عليهم قضاء مبرماً، وإقامة الخليفة المعتصم حد الحرابة الواجب على المفسدين في الأرض بحق بابك الخرّمي.. والذي خلفه فيما يبدو شخص كردي آخر يدعى موسى.

ثور القبط البياميين

وتعد شهادة البطريرك ديونيسيوس التلمحري حول ثورة الأقباط البياميين في إقليم البشروط، أو البشرود، أو البشمور، عند افتراق فرعي دمياط ورشيد لتشكيل الدلتا المصرية، الشهادة الوحيدة المعاصرة حول هذه الثورة، التي أثارت وما تزال تثير الكثير من التعليقات والدراسات والنصوص الأدبية، ولعل أهمها رواية البشموري لسلوى بكر.

فالرحلة التي قام بها البطريرك التلمحري إلى مصر بطلب من الخليفة المأمون موثقة بأدق تفاصيلها، وتعرض القضية من مختلف أبعادها، وأسبابها التي جعلت البياميين ينتفضون.

وثمة نظريات شتى في هذا المجال، بل وصل الأمر بالبعض إلى التطرف في الآراء، حول العرب وعلاقتهم بمصر، علماً أن الموضوع أعقد بكثير من الأفكار التبسيطية التي يطرحها البعض اعتماداً على نظريات استشراقية عنصرية[1].

---

(1) يمكن اعتبار مقال لطيف شاكر (ثورات الأقباط في ظل الاحتلال الإسلامي) في مجلة الحوار المتمدن العدد 2863، أنموذجاً جيداً على هذه النزعة الاختزالية، إذ يقول: (وفي سنة 824 أضطر الخليفة المأمون أن يزحف من بغداد إلى مصر على رأس قوة حربية لإخماد ثورة الأقباط التي فشل في إخمادها كل قواده الذين أرسلهم سابقاً. وكاد ثوار الأقباط أن يفتكوا بجيش المأمون لولا أن الخليفة العباسي التجأ إلى أخبث

ومن شأن شهادة البطريرك التلمحري أن تسهم في توضيح الكثير من اللبس والغموض الذي يحيط ببعض تفاصيل هذه الثورة وأسبابها الحقيقة وخلفياتها، وطبيعة تركيبة السلطة، ومسؤولية الخليفة والوالي وقادة الجند وعمال الخراج وغير ذلك، ومصائر الأسرى والمنفيين في بغداد وغيرها من المدن، ودورهم المحوري في القضاء على ثورة الزط.

ثورة الزط

ومع أن المصادر العربية الإسلامية تحدثت عن ثورة الزط وقيام عجيف بن عنبسة بوضع حد لها، غير أنها لا تشير من قريب ولا من بعيد إلى دور الأقباط البياميين في القضاء عليها، وهو ما ذكره البطريرك التلمحري بشكل واضح، حيث شار إلى حظوة الأقباط بعد ذلك لدى الخليفة المعتصم.

ومع أن الأسباب التي دفعت الزط إلى إعلان العصيان على السلطة في بغداد بدو واضحة في المصادر التاريخية العربية، وكذلك في نص التلمحري، إلا أن اضح هو أن الزط مارسوا قطع الطريق على شريان حيوي من شرايين تجارة لافة العباسية، وهو شريان الخليج ـ شط العرب، والذي لا يمكن تركه هكذا فريسة لعمليات السطو والقرصنة التي لجأ إليها الزط.

الطرق والغير شريفة للقضاء على الثائرين، وذلك أنه استدعى الأنبا(!) ديونيسيوس البطريرك الإنطاكي واستدعى معه الأنبا يوساب الأول بطريرك الأقباط وطلب منهما تحت التهديد أن يتعاونا معه في إخماد ثورة الأقباط، وقد أجابا بكل أسف طلب المأمون وحررا للثوار رسالة بها نصائح ومواعظ يحُثا فيها الثوار أن يلقوا بسلاحهم ويسلموا أنفسهم لولاة الأمير. وفي الوقت الذي كان الثوار في أمس الحاجة للمعونة المادية والمعنوية حتى يتمكنوا من التخلص من الظلم والاستبداد الأجنبي إذ بالقادة الروحيين ينخدعوا فيدعوهم إلى الاستسلام. ولا شك إن هذا الموقف من طرف القادة الروحيين كان له أثره البالغ على الأقباط أكثر من كل جحافل المأمون وطاغيته) [ملاحظة: الأخطاء اللغوية والنحوية من أص[illegible]

واللافت أن بعض الشخصيات الزطية وصلت إلى أرفع المناصب في الدولة العباسية، وهو ما ينفي وجود تمييز ضد هذه الفئة من الناس، فالسري بن الحكم الزطي وابناه محمد وعبيد الله، حكموا مصر سنوات طويلة من قبل خليفتي بغداد المأمون والمعتصم.

ولاشك في أن التجربة التاريخية أثبتت استحالة حكم مصر من بغداد، أو من أي مكان آخر، فمصر لا تحكم إلا من مصر، وهو ما حدث فعلاً مع الأسرة الطولونية التي استقلت بمصر عن بغداد ابتدءاً من عهد المعتز، ومن ثم الخلافة الفاطمية التي انتقلت إليها من المغرب، وكذلك تجربة صلاح الدين في حكم مصر، ومحمد علي فيما بعد.

وبعد..

فهذه الرحلات، في ظننا، تشكل رافداً مهماً لكل دارس ومهتم بتلك الحقبة من حقب التاريخ العربي الإسلامي، وخصوصاً أنها من جهة، معايشة للأحداث ودونت في وقتها من قبل صاحب الشهادة التاريخية أولاً، وبعيدة عن الخلافات السياسية، بين أموي وعباسي وطالبي وخارجي ثانياً، هذه الخلافات التي انعكست على النصوص التاريخية والفقهية، وتمت عبرها تصفية حسابات وثارات، زعزعت البعض من صدقية النص التاريخي العربي الإسلامي لتلك الحقبة وما قبلها، خصوصاً أن ميول وأهواء إخباريي ذلك الزمن كانت عباسيةً، وبالتالي فارسيةً معاديةً للحقبة الأموية ولبلاد الشام.

ومن هنا أهمية نص البطريرك التلمحري الشامي الشاهد على اضمحلال بلاده وتراجع دورها ومكانتها، وتحولها إلى ولاية تابعة، يعيش فيها سريان مظلومون

وممزقون في خلافاتهم الكنسية، وعرب عصاة مطاردون ينتظرون السفياني المخلص، الذي سيعيد لهم مجدهم الزائل[1].

---

(1) يلخص الخليفة المأمون موقف عرب الشام من الخلافة العباسية في حديث نقله الطبري محمد بن صالح السرخسي: تعرض رجل للمأمون بالشام مراراً وقال: يا أمير المؤمنين! انظر لعرب الشام كما نظرت لعجم خراسان! فقال له: أكثرت عليّ والله ما أنزلت قيسًا من ظهور خيولها إلا وأنا أرى أنه لم يبق في بيت مالي درهم واحد، يعني فتنة ابن شبث العامري، وأما اليمن فوالله ما أحببتها ولا أحبتني قط، وأما قضاعة فساداتها تنتظر السفياني حتى تكون من أشياعه، وأما ربيعة فساخطة على ربها مذ بعث الله نبيه من مضر. ولم يخرج اثنان إلا وخرج أحدهما شاريًا أعزب، فعل الله بك. [تاريخ الطبري ج 7 ص 211-212].

توطئة

لست أعلم كيف تورط الآباء ووثقوا بي، ولا أقول انخدعوا.

ربما أُخذوا بالأحاديث الغريبة عني، نظراً لسلامة طويتهم، وعلموا من كثيرين كيف يمكن أن أتدبر مثل هذا الأمر حين وقفوا على آرائي. فقد دُعيت إلى كرامة الأسقفية مرتين، وكنت أهرب متخفياً من مكان إلى آخر، وهذا ما جعلهم يظنون بأني سأهرب لدى سماعي بالنبأ، فأرسلوا راهبين شديدي البأس إلى دير مار يعقوب، مقر إقامتي، بعد الشتات الذي حل برهبان دير قنسرين[1]، فتسللا إلي ليلاً وقبضا علي، فارتبكت، وإذا لم أجد لي مهرباً، لذت بالصمت، فأقيمت علي حراسة كمجرم حتى وصل الأساقفة، فبكيت وتضرعت لهم، لكن قلوبهم لم ترأف لحالي، فاقتادوني مخفوراً من ذلك المنعزل إلى وسط المجمع وأنا أحاول التملص منهم.

ولقد أفصحت لهم عن مكامن ضعفي ومواضع عيوبي وقلة حيلتي، غير أنهم أصروا على تحميلي العبء عنوة، محذرين من أن غضب الله سيحل على المتمردين، ولم

(1) قنسرين، بنون مشددة، مدينة سريانية عريقة يعني اسمها بالعربية عش النسور، وهي الآن بلدة صغيرة تقع في هضبة حلب الجنوبية على مسافة 40 كم عن المدينة، وتاريخياً كانت قنسرين ذات أهمية كبيرة بالنسبة للكنيسة السريانية الأرثوذكسية فكانت تحتوي على مدرسة لاهوتية ضاهت مدرستي الرها ونصيبين، وأصبحت أثناء الفتوح الإسلامية عاصمة شمالي بلاد الشام الذي سمي جند قنسرين.

يتركوا وسيلة لإقناعي إلا وتوسلوا بها، حتى أنهم تركوا مقاعدهم وجثوا أمام ضعفي.

وهنا شعرت بأني أخوض في بحر الظلمات، وقد تلاشى كل أمل لي في الهروب. وكنت أظن بأن اقتبال الكهنوت أمر جدٌّ صعب، لا سيما بالنسبة إلى بائس مثلي، وحتى إلى الذين وصلوا إلى درجة رفيعة من الفضيلة. غير أني، بعد لأي، رأيت الإصرار على التمرد أمراً بلا طائل..

هكذا رسموني شماساً يوم الجمعة في دير العمود، وكاهناً يوم السبت في دير مار زكا، ويوم الأحد الأول من شهر آب عام 1129 [818م] رفعوني إلى مرتبة رئاسة الكهنوت في كنيسة الرقة الكبرى ونادوا بي وارثاً للكرسي، أنا الذي لا أستحق أن أحل سيور الأحذية، مستشهداً بالله بأني لم أُبتل بمحبة الزعامة، حتى ولم تخطر على بالي قط مثل هذه الرغبة التي تراود الكثيرين.

ولما اختتم المجمع أعماله، وجهت اهتمامي نحو الخلافات الكنسية واخترت عشرة أساقفة وتوجهنا نحو بيت بالش[1]، واستدعيت الجبيين[2] ليحضروا لكي نتفاوض من أجل السلام. فقالوا للوفد: لن نحضر ما لم يثبت عبارة (الخبز السماوي).

ولما قطعنا الأمل في الجبيين، توجهنا نحو القورسيين المجتمعين في قورس[3]، وبينهم كهنة وشمامسة، فتحدثنا إليهم في موضوع السلام، وإذ علموا بأننا لا نحظر

(1) بالس في المصادر العربية على نهر الفرات في موقع قرية مسكنة التابعة لحلب. مر التعريف بها.

(2) نسبة إلى دير الجب الخارجي أحد أهم معاهد العلم لدى السريان، يقع بين حلب وبالس.

(3) يذكر ابن العديم في موسوعته (بغية الطلب في تاريخ حلب) أن قورس مدينة كانت قديمة من بناء الروم، وبها آثار عظيمة، ويقال إن بها قبر أوريا بن حنان، وخرج منها جماعة من الرواة، ولها ذكر في الفتوح. وذكرها اليعقوبي في كور جند قنسرين والعواصم فقال: وكورة قورس مدينة قديمة وأهلها قوم من قيس

عبارة (الخبز السماوي) مالوا إلينا، فلما رأى أبيرام وأتباعه أن أهل المنطقة أطاعونا، استشاطوا غضباً، وعزموا على عدم إبقاء هؤلاء البسطاء في المدينة، واختطفوا العديد منهم. أما نحن فقد انتقلنا من قورس إلى أنطاكية في تشرين عام 1131 [820م]، حيث باشر الأساقفة بمراسيم التنصيب بعد تلاوة قرار المجمع.

وكان الغالبون عليها آل العباس بن زفر الهلالي. وتقع قورس إلى الشمال من أنطاكية ويبدو أنها كانت بمثابة المخفر المتقدم لها. ويقول الإدريسي في نزهة المشتاق إن قورس حصن على جبل متصل بجبل اللكام. ويذكر ياقوت الحموي في معجم البلدان مادة قورس ما يلي: بالضم ثم السكون وراء مضمومة وسين مهملة. مدينة أزلية بها آثار قديمة، وكورة من نواحي حلب، وهي الآن خراب، وبها آثار باقية، وبها قبر أوريا بن حنان طولها أربع وستون درجة، وعرضها خمس وثلاثون درجة، وخمس وأربعون دقيقة داخلة في الإقليم الرابع بخمس وأربعين دقيقة بيت حياتها أربع درج من العقرب، ومن العواء عشرون دقيقة تحت اثنتي عشرة درجة من السرطان طالعها الصرفة بيت ملكها الجبهة يقابلها اثنتا عشرة درجة وسط سمائها اثنتا عشرة درجة من الحمل عاقبتها مثلها من الميزان. ينسب إليها أبو العباس أحمد بن محمد بن إسحاق القورسي روى عن الفضل بن عباس البغدادي روى عنه أبو الحسين بن جميع الصيداوي سمع منه بحلب حدث بدمشق سنة 313.

قلاقل وتمرد

في عام 1130 يوناني [819 ميلادي] عاد المأمون إلى بغداد من خراسان[1]، على إثر سماعه عن تولي عمه إبراهيم بن المهدي[2] الحكم، وعن انقسامات وحروب أهل بغداد، وجلوس الحسن بن سهل[3] في الكوفة وطاهر بن الحسين[4] في الرافقة[1]

---

(1) عندما بايع الناس المأمون بعد مقتل الأمين كان في مدينة مرو في إقليم خراسان، ولم يعد إلى بغداد إلا بعد أن سمع بخلعه من قبل بني العباس ومبايعة عمه إبراهيم بن المهدي. وإقليم خراسان الإسلامي واسع ممتد يشمل أجزاء من إيران وشمالي غربي أفغانستان وجنوب تركمانستان.

(2) إبراهيم بن الخليفة المهدي أخو هارون الرشيد ويكنى أبا إسحاق، أشهر أولاد الخلفاء ذكراً في الغناء وأتقنهم صنعةً، بويع له بالخلافة ببغداد والمأمون يومئذ بخراسان وقصته مشهورة وأقام خليفة بها مقدار سنتين. وذكر الطبري في تاريخه أن أيام إبراهيم بن المهدي كانت سنة وأحد عشر شهراً واثني عشر يوماً، وكان سبب خلع المأمون وبيعة إبراهيم بن المهدي أن المأمون لما كان بخراسان جعل ولي عهده علي بن موسى الرضا، فشق ذلك على العباسيين ببغداد خوفاً من انتقال الأمر عنهم إلى العلويين، فبايعوا إبراهيم بن المهدي ولقبوه المبارك.

(3) أبو محمد الحسن بن سهل السرخسي، فارسي المولد من وزراء الخليفة المأمون وولاته وقواده، وأخو الفضل بن سهل ذي الرياستين، رياسة الحرب والقلم، وقد تولى الحسن بن سهل ديوان الخراج. ثم استوزر المأمون الحسن بعد مقتل أخيه الفضل وتزوج ابنته بوران، وولاه على كور الجبال والعراق وفارس والأهواز والحجاز واليمن. توفي في خلافة المتوكل. وقد أخرجه بنو العباس وأهل بغداد من المدينة عندما بايعوا لإبراهيم بن المهدي، فتوجه إلى الكوفة.

(4) طاهر بن الحسين بن مصعب بن زريق الخزاعي ولد سنة 159هـ، وهو أحد أشهر قواد الخليفة المأمون، وكان يعرف بذي اليمينين. و قد سيره لمحاربة أخيه الأمين من خراسان لما خلع بيعته فتقدم طاهر إلى بغداد بعد كسر جيش الخليفة بالري وأخذ ما في طريقه من البلاد وحاصر بغداد وقتل الأمين سنه 198 هـ، وحمل

منفردين، فلما وصل المأمون إلى بغداد، ترك البغداديون إبراهيم، ونصبوه على عرش والده. أما إبراهيم فهرب واختفى، وعاد طاهر لمقابلة المأمون فقبله. ثم عينه حاكماً في خراسان عام 1132ي [821م] نظراً إلى ثقته به.

وبعد سفره استقدم ابنه عبد الله وأكرمه ووضعه مكان والده، وأمر أن يتولى القضاء مدى الحياة، فنشط المتمردون، واشترى نصر بن شبث[2] حصن بيت بالش[3] وجمع قواته ونزل إلى نهر هاني[4] بالقرب من الرقة. ولما خرج عليه عيسى مع جماعة من السوقة، أجهز عليهم جميعاً وعاث في القرى نهباً وسبياً، فانزعج المأمون من ذلك، فأرسل شبيب[5] قائد الجيش على رأس سبعة آلاف من المقاتلين لمجابهة نصر، ففزع وأرسل إلى المأمون وفداً يحمل رسالة خضوع، فأجابه: إن كنت صادقاً، هلم وطأ بساطي فأكرمك.

غير أنه كان يقصد مماطلة الخليفة، فاستعد شبيب للحرب، وقسم نصر قواته إلى ثلاثة معسكرات ومنع الفرس من إمدادهم بالطعام، فاضطر، بدافع الجوع، إلى

رأسه إلى خراسان وعقد للمأمون على الخلافة فكان المأمون يرعاه لمناصحته وخدمته، وقد قام المأمون بتوليته على خراسان سنه 205 هـ وأسس هناك الدولة الطاهرية وتوفي في 207 هـ.

(1) الرافقة مدينة بناها الخليفة المنصور كعاصمة صيفية له، وهي تقع ملاصقة لمدينة الرقة اتصلت معها فيما بعد وأصبحت من ضواحيها.

(2) نصر بن شبث العقيلي ثائر للعصبية العربية. من بني عقيل بن كعب بن ربيعة. كان أسلافه من رجال بني أمية. وكانت إقامته في كيسوم شمالي حلب. وفي أيامه مات هارون الرشيد، وحدثت الفتنة بين الأمين والمأمون، وقتل الأمين. فامتنع نصر عن البيعة للمأمون، وثار في كيسوم، وتغلب على ما جاورها من البلاد، وملك سميساط واجتمع عليه خلق كثير من الأعراب، وقويت نفسه، وعبر الفرات إلى الجانب الشرقي سنة 198 هـ.

(3) عرف هذا الحصن في الفترة البيزنطية باسم بارباليسوس، وفي فترة الحروب الصليبية باسم، بالس وهو يقع في بلدة مسكنة الحالية، على الضفة اليمنى لنهر الفرات عند منعطفه الكبير نحو الشرق، إلى الجنوب الشرقي من مدينة حلب على مسافة 90 كم.

(4) يسمى الآن نهر البليخ.

(5) شبيب بن حميد بن قحطبة من قادة هارون الرشيد.

الاندفاع نحو الحرب، فسقط عدد كبير من الجانبين، وفر العرب وأخذ الفرس ينهبون السوقة ويأكلون ويشربون ويبذخون ويوجهون الإهانة إلى الذين داخل السور.

وإذ جبن جنود الفرس المتعجرفون، عاد إليهم نصر، فهزموا أمامه خوفاً، لكن شبيب شعر بضعف العرب[1]، فذهب إلى أنطاكية ليأتي بالذهب الذي جلب من مصر في عهد هرقل، فتسلل ليلاً، فشعر به نصر فأدركه واستطاع أن يفصل ثلاثة آلاف من رجاله، وأمرهم برمي سلاحهم ففعلوا، وقبض عليهم، ومن ثم طارد شبيب وأدركه، فخاف الفرس وصرخ نصر قائلاً: سأعطي فرساً وألف دينار لكل من يتبعني، فتبعه عدد كبير من الفرس، واضطر شبيب إلى الهرب والعودة إلى بغداد مع النفر القليل الذي تبقى معه، وهو يجر أذيال الخزي الذي يستحقه لأنه لم يكن يردع قواته من ارتكاب الجرائم بحق المساكين.

أما نصر بن شبث فسيطر بجيشه على الفرس وقتل حتى الذين تبعوه والذين رموا سلاحهم. ولدى عودته من محاربة شبيب، طرق مسامعه أن جماعة اليمانيين[2] الذين في منبج، أعادوا بناء القرى الواقعة على شاطئ نهر شغور الذي يسميه المسلمون الساجور[3]، فكمن لهم نصر مع جيشه لدى ذهابهم إلى العمل، وفتك بهم بمن فيهم النساء، ومن كافة الأعمار. وإذ حلَّ الناجون في دير بوريم، أحرق الدير

---

(1) المصطلح السرياني المستخدم هنا هو طيايا ويعني العرب تحديداً، ولكنه قد يعني المسلمين أيضاً.

(2) يبدو أن نصر بن شبث كان من الحزب القيسي، وهو ما أورده الرهاوي المجهول في تاريخه، حين قال في المقطع 203 إن نصر بن شبث وبني قيس ناوئوا عبد الله بن طاهر. وهناك أبيات لأحمد بن أشجع السلمي يمتدح فيها هجوم نصر بن شبث على الساجور. يقول فيها:

لله سيف في يدي نصر — في حده ماء الردى يجري

أوقع نصر في السواجير — ما لم يوقع الجحاف بالبشر

(3) ينبع نهر الساجور من تركيا ويخترق الحدود السورية التركية عند بلدة عين عزة في محافظة حلب، ويسير في سوريا حتى ينتهي باندماجه مع نهر الفرات من الضفة الغربية للنهر يبلغ طوله 74 كم.

فاحترق العديد منهم، وكان الجنود يقبضون على الذين يرمون أنفسهم إلى أسفل ويقتلونهم بحد السيف. وهكذا هلك عدد كبير من أولئك المساكين، فقطعوا رؤوسهم وحملوها معهم إلى سروج.

في نيسان عام 1130 [819م] توفي مرقس بابا الإسكندرية بعد تسعة أشهر من تنصيبي على كرسي أنطاكية، فخلفه البطريرك يعقوب.

الرحلة الأولى إلى بغداد

في عام 1131 [820م] سافرت صحبة الأساقفة إلى بلاد ما بين النهرين[1] [الجزيرة] ومنها إلى بغداد، للحصول على فرمان[2] من المأمون أسوة بأسلافي البطاركة، فصدر الفرمان بمسعى طاهر بن الحسين الذي في عهده ومساعيه عقد مجمع مدينة الرقة[3] الذي تم فيه انتخابي.

لقد كتب أهل تكريت[4] لنا ونحن في بغداد لكي نعيّد عندهم، نظراً لمحبتهم لنا. إلا أن أسقفهم باسيل، الذي كان يبث ضدي سموم الحقد فيهم قائلاً لهم: إن

---

(1) يستخدم البطريرك التلمحري مصطلح ميزوبوتاميا وهو التعبير اليوناني لبلاد ما بين النهرين الذي يقابله في العربية مصطلح الجزيرة.

(2) فرمان مصطلح فارسي قديم ويعني وثيقة، إرادة، رغبة، سماح.

(3) يرد اسم الرقة في النص السرياني قالينيقوس، وهو الاسم الذي كانت تعرف به في العصر البيزنطي. يذكر الآثاري كريزويل إلى أن اسمها كان كالينيكوم، أو كالينيكوس، وقد نسبها إلى الإمبراطورغلينوس الذي توفي سنة 277م. بينما يرى هونيغمان أنها المدينة الهيلينية، وينسبها إلى خليفة الإسكندر سلوقس الثاني قالينيقوس.

(4) تكريت مدينة في العراق تقع على مسافة 160 كم شمال غرب بغداد على نهر دجلة، تعد أحد أهم مراكز المسيحية في الشرق كله ورتبة أسقفها هي أرفع الرتب إذ أنه مفريان الشرق كله، وكانت أهم مركز للعرب المسيحيين حتى العصر العباسي، فأهلها م قبائل عربية متعددة مثل إياد وتغلب وأنمار..ونتيجة اضطراب الأوضاع هجر التكريتيون مدينتهم ولكنهم ظلوا يسمون بالجالية التكريتية أينما حلوا. وهي الآن مركز محافظة صلاح الدين. ولد فيها صلاح الدين الأيوبي حيث كان والده أيوب بن شادي آمر قلعتها في فترة حكم السلاجقة.

هذا البطريرك عدوكم، وكان يزعم أن الأساقفة الذين برفقتي، يريدونني أن أعود بسرعة إلى بلادي لكي أحتفل بتقديس الميرون[1].

وكان يقول للأساقفة الشرقيين، حتى متى نخضع لسيطرة الغربيين الذين يسلبوننا ما نجمعه من أموال، ولم لا يعتبرون كرسينا مثل كرسي مصر مساوياً لهم في الرتبة؟

غير أن الرب لم يسمح أن ينفذ ما كان يجول في خاطره..

لقد كتب إلينا يقول: ليست الظروف مواتية لزيارتكم تكريت لأن الحكام هنا يضغطون كثيراً على المؤمنين.

فلما عرفنا سوء نيته عرجنا على الموصل، ثم قصدنا مدينة قرقسيون[2] بطريق الفرات. وبعد مراسيم الأعياد وتقديس الميرون، توجهنا نحو قرى الخابور[3]، ووصلنا إلى نصيبين ودارا وكفرتوثا مدينة بين النهرين، قبل أن نعود إلى مقر إقامتنا في دير قنسرين.

---

(1) سر الميرون أو سر التثبيت هو أحد الأسرار السبعة المقدسة في الكنيسة المسيحية. والميرون كلمة يونانية تعني طِيب مقدّس أو دهن مقدّس.

(2) اسمها اليوناني كركيسيوم، أصبح اسمها في العصور الإسلامية قرقيسياء، كانت مدينة مهمة في العصر البيزنطي، واسمها اليوم البصيرة وهي مدينة سورية صغيرة عند مصب نهر الخابور في نهر الفرات تتبع مدينة دير الزور السورية.

(3) الخابور نهر طوله 320 كم ينبع من جنوب تركيا الحالية بالقرب من الحدود السورية ثم يعبر الحدود جنوباً ناحية رأس العين في سوريا شمال محافظة الحسكة. يندمج بنهر جقجق في الجزيرة السورية ويسيران معاً ثم يصبان في نهر الفرات قرب الميادين التابعة لدير الزور.

عثمان بن ثمامة

ولما جاء عثمان بن ثمامة [العبسي] الذي سيطر على سوريا الداخلية وحمص وفينيقيا، إلى دير قنسرين بطريق الفرات، وشاهد الكنيسة الفخمة التي احترقت وتهدمت، طلبنا إليه إعادة بنائها، فرحب بنا وأعطانا فرماناً في بنائها، وزّودنا برسائل إلى الحكام لمساعدتنا في ترميم الكنائس والأديرة، كما أخبرته بالتمرد الذي حدث في دير أوسيبونا في كورة انطاكية[1] منذ عهد البطريك قرياقس، وموالاة رهبانه لأبيرام. فكتب إلى أمير الغرب ليطرد أتباع أبيرام منه ويسلّمه لنا.

وهكذا عاد إلينا بعد أن سرقوا الكتب والآنية الفاخرة التي فيه.

حوت

في هذه الفترة، قذف بحر قيليقية حوتاً كبيراً طوله أربعون ذراعاً وثخنه أكثر من طوله، وقد وصفه البعض بقطعة من جبل أو وحش هائل. واقتطع أهل المنطقة من لحمه وشووه، وأخذوا قسماً منه إلى أنطاكية وقد رأيت أكثر من أربعين جرة مملوءة من مخه، وبالكمية نفسها من الجرار مملوءة من زيته الذي استعمل للإنارة والطهي.

المبرقع الكردي

سنة 1130 [819م] توفي ميخائيل ملك الروم، وحكم ثاوفيل، فقدم له البلغاريون والأكراد المسلمون الطاعة، وكان هؤلاء الأكراد قد تسلموا من آبائهم

---

(1) يقع دير أوسيبونا في بلدة تلعدا في أقصى شمالي محافظة إدلب وهي آخر قرية تتبع المحافظة من ناحية جبل سمعان. وتبعد عن إدلب حوالي 43 كم، والمعروف أن محافظة إدلب الحالية تضم معظم أعمال كورة أنطاكية القديمة.

فكرة قيام ملك يدعى المهدي، المنتظر أن يقود الشعوب إلى الإيمان بالله، وأنه سيورّث ملكه لآخر تستمر خلافته إلى ما لا نهاية له، والمؤمنون به سيبعثون بعد موتهم بأربعين يوماً، ويعودون إلى ذويهم ومن ثم ينتقلون إلى مكان مجهول.

وقد ظهر في هذه الأيام ذاك المدعو المهدي، وكان يضع برقعاً على وجهه، ويدعي حيناً بأنه المسيح، وحيناً آخر بأنه الروح القدس، وكان عدد أتباعه وأمواله يزداد يوماً فيوماً، واجتمعت عنده زرافات من الأمم باسم النهب والسلب، واتخذ مقراً له في جبال الأكراد المنيعة، وانتشرت عبادته في الجزيرة وأرمينيا، وقام بتدمير بازبدي[1] وطور عبدين[2]، وكان يفتك بالجميع دون تمييز، وقد عبده المجوس واعتبروا كل من لا يعبده غريباً، حتى أن الخليفة المأمون بات يحسب له أكثر من حساب.

وعندما جاؤوا لنهب دير قرتمين[3] والقرى المجاورة، أخذت الغيرة الحسن [حاكم المنطقة] الذي كان يحترم بشكل كبير معتقدات المسيحيين، فباغتهم بالهجوم فاندحر الأكراد وهزموا، واضطر ذاك المتأله إلى الهروب مع نفر من أتباعه من أمام الحسن إلى منطقة إسحاق بن أشوط[4]، الذي قبض عليه وسجنه، لكن الأكراد

---

(1) تعرف بازبدي الآن باسم آزخ ويسميها الأتراك إيديل. بالسريانية: ܒܝܬ ܙܒܕܝ بِث زَبدَي، بلدة كانت هامة دينياً وتاريخياً تقع في جنوب شرقي تركيا، ضمن الحدود الإدارية لمحافظة شرناك، المحاذية لولاية ماردين.

(2) طور عبدين، هضبة عالية في جنوب شرق تركيا يدمج فيها النصف الشرقي من محافظة ماردين ومحافظة شرناك غربي نهر دجلة، عند الحدود مع سوريا. الاسم طور عبدين اسم سرياني ܛܘܪ ܥܒܕܝܢ معناه جبل العابدين. أغلب سكان طور عابدين الآن مسلمين، أكراد يتكلمون الكردية وعرب يتكلمون اللهجة المحلمية وهي من فروع اللهجة الماردينية.

(3) دير قرتمين، هو دير مار كبرئيل وهو عماد أديرة طور عبدين يقع شرقي مديات (ماردين) تركيا على مسافة 24 كم.

(4) لا معلومات حول اسحق ابن أشوط هذا، ولكن كما هو واضح فهو زعيم مسيحي سرياني يقيم في منطقة طور عبدين بدلالة اسمه، لأن أشوط اسم سرياني لا لبس فيه يعني شهر شباط، وهناك قرية في منطقة طور

هاجموا بيت إسحاق لإنقاذ ملكهم، إلا أن إسحاق بادر إلى قطع رأس المهدي وأخذه مع أمواله وأفراد أسرته وهرب. فلما دخل الأكراد لم يجدوا سوى جثة المهدي.

وبعد فترة خاض إسحاق وجنده قتالاً مع المسلمين، فكمن الأكراد لذويه وأفراد أسرته، غير أن امرأة وثنية بثت الخبر في القرية، فدخل الراهب شقيق زوجة إسحاق مع جماعة من الناس، الحصن، ثم جاء الأكراد وقتلوا الموجودين وقاتلوا بالحجارة الذين داخل الحصن.

والتجأ المؤمنون إلى البيوت محتمين بصلاة ذلك الراهب العفيف المقترنة بالركوع، والذي كان يتضرع إلى المسيح وهو حامل صندوقاً يحتوي على ذخائر القديسين. وكانت أخته تحثه على المزيد من الصلاة وقد ألقت رضيعها أمام الرب وناشدت المسيح قائلة: ارأف بعبيدك من أجل هذا الطفل الذي ما زالت أثار المعمودية في وجهه.

ولما أوشك الأكراد على دخول الحصن بسبب احتراق الأبواب، أخذ راهب آخر رمحاً مثل فينحاس[1]، وألقى بنفسه من السور ووصل إلى زعيمهم وطعنه، باسم الله، وقتله دون أن يستطيعوا إلحاق الأذى به، وأمضى المؤمنون الليل ساهرين.

أما زوجة إسحاق التقية، فقد قررت الموت ولا السقوط بأيدي الوثنيين، فتقلدت سيفاً مذهباً لكي يجذبهم لمعانه فيقتلوها، واستعدت للخروج مع مطلع الصباح. غير أن الرب، الذي يستجيب لمن يدعوه بإيمان، جعل الأكراد يتراجعون

عبدين تدعى باسحاق بالسريانية، أي منطقة إسحق أو بيت إسحق، ربما لها علاقة بإسحق ابن أشوط هذا.

(1) هو فينحاس بن ألعازر بن هارون الكاهن الذي طعن الزاني زمري بالرمح للخلاص من الوباء، وترد قصته في سفر العدد 14: 28-34.

عن مهاجمة الحصن الذي أوشكوا أن يستولوا عليه، ويوجهوا أنظارهم إلى نهب المنطقة قبل هروبهم. فسمع إسحاق بالخبر وأرسل مشاة إلى الحصن فعادوا مكتئبين والتقوا بشباب مستغرقين في الصلاة، وسيوفهم مربوطة مع بعضها البعض.

وفي اليوم التالي وصل إسحاق مع جيشه النشط، ولأن الأكراد كانوا قد تعبوا من جراء القتال، لم يسمعوا صوت حرسهم. فلما حاولوا الهروب لم يتمكنوا بسبب الثلوج. وهكذا أجهز إسحاق عليهم جميعاً.

وإلى هذا المصير انتهى المهدي والذين معه، وخلفه ابنه هارون في زعامتهم فقتله علي [أحد الحكام المسلمين]، ثم قام من بعده بابك الخرّمي[1] راعي البقر، والذي التجأ إلى ثاوفيل ملك الروم.

(1) قصة المهدي التي يرويها البطريرك التلمحري، تضيء جانباً مهماً غير موجود في أي مصدر آخر عن أصل الحركة المنسوبة إلى بابك والمدعوة الخرمية. ومن الواضح هنا أن بابك هذا هو كردي وليس فارسي، وأنه تزعم حركة المهدي الكردي. فلم يكن هو أصل ما سمي في التاريخ العربي الإسلامي البدعة أو الفتنة الخرمية بل هو ثالث زعمائها.

عبد الله بن طاهر

في عام 1134 [823م]، لما علم المأمون بما فعله نصر بن شبث بقائده شبيب، دعا عبد الله بن طاهر ووعده بمنصب كبير، كما فعل فرعون ليوسف، وبعد أن قبل المسؤولية أخذ عشرين ألف مقاتل ووصل إلى الرقة فخضع له كافة زعماء الفرس[1].

محاولة ابيرام الحصول على فرمان

وخلال إقامة الأمير عبد الله بن طاهر في الرقة، أتينا للسلام عليه ففوجئنا بالمتمرد أبيرام وزمرته ينتظرون الإذن للدخول والحصول منه على فرمان.

ومن فوري دخلت إلى الأمير، فسألني عن أبيرام وزمرته، فأخبرته عن تمردهم على بطريركنا السابق مار قرياقس، وعن بقية مساوئهم، وأن غايتهم من الفرمان إثارة الشغب في المنطقة، لعدم وجود من يواليهم.

---

(1) تعبر هذه التسمية عن جيش الخليفة والذي كان يتكون من العنصر الفارسي قيادة وجنوداً. ولذلك نجد أن المصادر السريانية وحتى المصادر الملكية الأرثوذكسية مثل المؤرخ المطران أغابيوس المنبجي تسميه جيش الفرس.

فأوعز الأمير بدخول ذلك الشقي، فسأله: ما رتبتك؟ فأجاب: بطريرك. فاعترضت عليه لأنه كذب، وتحدث هو عن مسألة عبارة (الخبز السماوي). فسأل الأمير، وما موضوعه هذه العبارة؟

فأجبت: لقد اتخذوا هذه العبارة التي نتخاصم بسببها، غطاء لحبهم للزعامة، وقد وردت في الإنجيل، ونحن نستعملها في صلاتنا ضرورة. فنحن لا نستعمل الإنجيل كله دائماً في الكنيسة، إنما نتلو جزءاً منه أحياناً أو نفسره للشعب، وأحياناً أخرى نقرن صلواتنا ببعض آيات منه كما تفعلون أنتم، فإنكم لا تتلون كل كتابكم في صلاتكم، لكن الإمام يتلو جزءاً منه عندما يؤّم المصلين أو يقتبس آية منه ويبني عليها موعظته دون أن يعترض الحضور على تلاوة هذا الجزء أو ذاك، كما يفعل هؤلاء المتمردون في الكنيسة.

وبعد أن رويت القصة بكاملها باللغة العربية، جعله الرب يكرمني كثيراً، وأمر الحاجب أن يسأل آلاف المسيحيين الواقفين خارجاً عن رئيسهم.. فنادى من هو رئيسكم؟ فأجابوا: إن أبيرام ليس رئيسنا، لا بل ليس مسيحياً.

وبعد أن تمحص عبد الله الأمور ورأى الفرمان الصادر عن والده الأمير طاهر بن الحسين، نظر إلى أبيرام شزراً وقال: إني أرى أنك رجل كذاب ومُضلّ وأن الرئاسة هي لهذا البطريرك. فأمر بانتزاع برنسه (قباعته) للحال وزجره قائلاً: لا أريد أن أسمع أنك لبست القباعة مرة أخرى أو أمسكت عصا بيدك، أو أن تُدعى بطريركاً. فاذهب وصن نفسك وسرح أتباعك من الرهبان، وإذا سمعت أنك تجولت في المدن، يكون دمك عليك، وهكذا صرف أبيرام وزبانيته بعد أن أخذوا جزءاً نفاقهم.

غير أن الله، وبسبب آثامنا، أذن أن تَذِلَّ الكنيسة بعض الوقت، حيث تنمر المتمردون بسبب الراهب الذي رسمه أبيرام والذي كنا قد سامحناه، بيد أنه عاد إلى قيئه بتأثير برصوم المدعو ثاودوسيوس أسقف الرقة الذي انزعج بعودة الجبيين [نسبة إلى دير الجب الخارجي]. فلم يتوقف عن المشاغبة، وعمل شأن غيره، على إعاقة الوحدة التي حققها البطريرك قرياقس مع اليوليانيين[1].

ومثلما أثر أسقف الرقة على جبرائيل جاثليق الأرمن الذي تراجع عن الوحدة. هكذا فعل أيضاً بهذا الراهب.. عيره وهزأ به حتى دعا أبيرام إلى ديره وسلم إليه الفرمان المحفوظ في دير الجب الخارجي، والذي سبق أن منحه لأبيرام علي بن موسى الطالبي[2]، فأعطاه نفقات وأبلغ أخاه سمعان في بغداد ليحصل له على رسالة توصية.

فلما رأى العلويون فرمان علي بن موسى، ساعدوه وحصلوا على فرمان لأبيرام يخوله حق التجوال في المدن. فعاد سمعان الداري من بغداد حاملاً الفرمان لأخيه أبيرام وجمع عصابة من الرهبان ليقابلوا الأمير عبد الله بن طاهر، فأرسل في طلبنا وحضرنا من أنطاكية.

---

(1) الأرمن من أتباع القديس يوليان، وهم يعتنقون العقيدة نفسها التي يعتنقها السريان والأقباط والعرب، ورتبة زعيمهم الديني جاثليق ويتبع للبطريرك السرياني الأنطاكي.

(2) هو علي بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن ابي طالب (رضي الله عنهم) بايع المأمون علي بن موسى بولاية العهد من بعده. وهو ما أثار نقمة العباسيين. يقول اليعقوبي في تاريخه (2/ 448): وأشخص المأمون الرضي علي بن موسى من المدينة إلى خرسان، وكان رسوله إليه رجاء بن أبي الضحاك قرابة الفضل بن سهل، فقدم بغداد، ثم أخذ به على طريق ماه البصرة، حتى إذا صار إلى مرو بايع له المأمون بولاية العهد من بعده. وكان ذلك يوم الاثنين لسبع خلون من شهر رمضان سنة 201هـ. وألبس الناس الأخضر، [شعار الطالبيين، وكان السواد شعار العباسيين قبل]) وكتب بذلك إلى الآفاق، وأخذت البيعة للرضي، ودعي له على المنابر، وضربت الدنانير والدراهم باسمه.. ولم يعمر علي بن موسى طويلاً بعد مبايعته بولاية العهد بل مات بعد سنتين (عام 203هـ) في يوم الحادي والعشرين من رمضان.

وبعد أن دخلت على الأمير استدعى الآخرين، فلما نظر القباعة على رأس أبيرام، حدق به شزراً وقال: لِمَ لبست القباعة ولم تتقيد بأمري؟ فأجاب: إنه مجرد غطاء الرأس وليست قباعة.

فسألني إن كان الأمر كذلك، وأبدى ارتياحاً عندما أكدت ما قاله الشقي. لكننا طعنَّا في صحة الفرمان في حين أنهم أكدوه، وقد ردهم الأمير في عدة أمور، وانتهينا إلى أن يستحصل الأمير أمراً بإلغاء ذلك الفرمان.

وخلال 26 يوماً وصل كتاب من المأمون إلى عبد الله جاء فيه: (لقد رفع إلينا المسيحيون مذكرة يشكون فيها من أبيرام الذي يزعم أنه بطريرك في الوقت الذي لهم ديونيسيوس بطريركاً. فاستدع يعاقبة تلك المنطقة واستفتهم حول من يريدون الخضوع له، فثبت رئاسته ومدَّ له يد العون بما يناسب ولا يتعارض مع العدالة).

فأذن لي الأمير بالدخول وترك أبيرام خارجاً وقال لي: أعطيك رسالة تلغي فرمان أبيرام وتضعه تحت سلطانك وتعزل كل من يقاومك.

ثم دعا حاجبه وقال: امسك بيد البطريرك واخرج، وادع أبيرام وزمرته وسلمهم إليه ليحكم عليهم كما يشاء. فخرج حيث كان آلاف المسيحيين والمسلمين مجتمعين، وأجلسني على وسادته وقال للمتمردين: إن الأمير يأمركم بأن تخضعوا للبطريرك المخول أن يطردكم أو يعزلكم.

وأمر أبيرام أن ينحني أمامي. ثم التفت إليَّ وقال: هو ذا الآن، بين يديك، افعل فيه ما تشاء. وقد ظن الحضور بأني سآمر بضربهم وجَبّهم. أما أنا فأخذت أنصحهم وقلت: بما أنكم قد سُلِمتم إلي، فإني أنصحكم على أن تملأوا قلوبكم من مخافة الله وتتركوا محاولة شق الكنيسة، ولينصرف كل واحد إلى بلده. ثم أمرت برفع القباعة

عن رأس أبيرام كعلامة لانتزاع الرئاسة منه، التي أخذها بالعصيان. فخرجوا يجرون أذيال الخجل واتجهوا إلى قورس القريبة من نهر كبثاي[1] بمنطقة جرجر، وهم يشيعون ويقولون أن الأمير قبلنا وأعطانا أمراً برسامة أساقفة، وبمثل هذه الأوهام كانوا يخدعون أهل القرى السذج.

فلما علمنا بهذا، أخذنا فرماناً من الأمير ورسائل إلى عماله، ووصلنا إلى جبرين[2] بمنطقة قوريقس (؟)، فلما قرأ عامله هناك رسالة الأمير، أمر بجلب أبيرام فوراً مع زمرته مخفورين كاللصوص، وسألني عما أريد أن يفعل بهم، فقلت: أريد تأديبهم قليلاً أمام القرويين الموالين لهم، كما طلبت نزع الأسكيم[3] من أبيرام وصليبا ونوح المدعوين أساقفة.

وبعد أن فضحنا كذبهم أمام الجميع، قلت للحاكم، أرسلهم إلى السجن، فتذمر القرويون، فأوعز إلى الفرس أن يطردوهم بالعصي، فعاد كل إلى بيته.

---

(1) كبثاي كلمة سريانية تعني المعقوف أو المقلوب، وقد يكون المقصود هنا نهر العاصي الذي ينبع من البقاع اللبناني في الجنوب ويسير إلى الشمال في حمص وحماة وإدلب ويمر قرب أنطاكية ويصب في البحر المتوسط مخالفاً للطبيعة، وقد سماه العرب بالنهر المقلوب وكذلك سماه اليونان أورند أو أرنط والتي تفيد المعنى نفسه.

(2) جبرين اليوم قرية تسمى كلجبرين تقع على بعد 40 كم شمالي مدينة حلب وعلى بعد 6 كم من تل رفعت، وهناك قرية تقع شرقي حلب على مسافة 17 كم تسمى جبرين، وهي المعروفة بمصادر العصر العثماني باسم جبرين الفستق، وليست هي المقصودة هنا.

(3) من الكلمة اليونانية eskima، أي الشكل المقدس، إذ عندما يبلغ الراهب درجة عالية من النسك يصير راهبا إسكيميا أي ويوهب له الإسكيم، وهو عبارة عن قطعة من الجلد المضفور ضفيرتين به 12 صليباً رمزا للفضائل الإثنتي عشر، وعندما يلبسه يحيط بصدره وظهره ويخلعه عند النوم وله طقس خاص بصلوات كثيرة.

وبعد ثلاثة أيام انتقل ذلك العامل من جبرين فطلبنا إليه أن يرسلهم إلى سجن حلب، فأثاروا هناك ضجة وادعوا أنهم مغبونون، وساعدهم الخلقيدونيون في حلب بقصد إهانتنا، فأرسل والي حلب بطلبنا.

ولما شرحنا له واقع الأمر، أوعز بإيداعهم السجن فأمضوا فيه عشرين يوماً فرأى الغربيون مذلتهم، ثم أرسلوا إلينا وسطاء متعهدين بعدم الاستعلاء علينا إلى الأبد، ومبدين استعدادهم للتوقيع على كل ما نريد، فوافقنا، وكتب أمير المنطقة وثيقة وقع عليها القورسيون، محرمين على أنفسهم دخول قورس أو إثارة أي نوع من الشغب، فتمتعت الكنيسة ببعض الراحة بعيدة عن أذى المتمردين. ولما نقل الأمير عبد الله إلى مصر، نكث المتمردون بعهدهم، ودخلوا قورس لكنهم لم يفلحوا في إثارة الشغب.

تمرد نصر بن شبث

لما علم نصر بن شبث بأن عبد الله بن طاهر رجل هادئ ومتواضع، توهم بأن صفاته هذه تشير إلى ضعفه فحرض أتباعه لمجابهته قبل أن يباغتهم، فلما وصلوا إلى نهر الخابور، جابهم عبد الله بن طاهر بـ 12 ألف مقاتل، فهرب عرب نصر من مكان إلى آخر. فإذا شوهد اليوم مثلاً في بقاع حران[1]، إذا بهم في اليوم التالي بالقرب من الرقة. وإذ رأى عبد الله صعوبة القبض على نصر بالمطاردة، اتجه نحو المدن التي يستقر فيها مثل سروج وكيسوم[2].

ولدى وصوله إلى بالش، سخر منه الذين على السور، فأمر بعدم الرد عليهم، وأرسل قائد جيشه عزيز[3] والتقى بنصر في قرية صرين[4] وقتل أربعين من عربه فدب بينهم الذعر، وسيطر بالقوة على حصن نصر وهو مركز قيادته، وأسر الثلاثمائة رجل المتواجدين فيه وأرسلهم إلى معتقل الرافقة، وجاء عبد الله إلى سروج وأمر بجمع الغلال والتبن ليزود بها الجيش لدى هجومه على كيسوم. فوقع أهل الجزيرة

---

(1) حران مدينة قديمة جداً تقع شمالي أرض الجزيرة، بالقرب من منابع نهر البليخ أحد روافد نهر الفرات.

(2) سروج وكيسوم من مدن الجزيرة الشهيرة ذات الثقافة السريانية، وتقعان حالياً في جنوبي تركيا قرب الرها.

(3) يذكر الطبري في تاريخه أن عزيز هذا كان أحد موالي عبد الله بن طاهر.

(4) صرين بلدة وناحية تابعة لمنطقة عين العرب في محافظة حلب في سوريا. تقع شمالي شرقي مدينة حلب قرب الحدود التركية الحالية.

والغرب في ضيق حتى أنهم فضلوا الموت، واضطروا إلى حصد الحنطة والشعير وغيرها من البذور قبل ميعادها.

أما نصر بن شبث فأخذ يطوف ويقتل الحصادين ويحرق كل ما يجده. فلما سمع عبد الله بن طاهر بالمآسي التي سببها نصر هاجم بلدة بالش وأخذ يمطرها بالحجارة، فأكره نصر المسيحيين على الصعود إلى السور بالبكاء والعويل لكي يعرف عبد الله أنه يهاجم المسيحيين وليس العرب، وحيث أنه كان يرفق بالمسيحيين أمر أن توجه الحجارة إلى المدينة لئلا تطال المسيحيين، وأن يحفروا تحت السور بالمعدات ففتحوا فيه ثغرة وسيطروا على المدينة وألقوا القبض على المتمردين وأوثقوهم بسلاسل وأرسلوهم إلى بغداد.

ولما علم عثمان بن ثمامة حاكم سوريا الداخلية وقنسرين وحمص وفينيقيا[1] بذلك، قدم خضوعه لعبد الله بن طاهر، فرحب به.

أما نصر اللعين، فكان يتجول في منطقة سروج يفتك بالفرس والمسيحيين، فاغتاظ منه جداً عبد الله بن طاهر قائد جيش الفرس، وتأهب لمهاجمة كيسوم معقل المتمرد نصر. فلما علم بذلك أنفذ رسالة يتعهد فيها بالخضوع ويعرض أولاده رهائن، فأجاب: إن لم يأت هو شخصياً لا أعطيه الأمان.

(1) هناك ولايتان باسم فينيقيا حسب التقسيمات الإدارية الرومانية: فينيقيا الساحلية وتضم معظم مدن الساحل الشرقي من المتوسط من اللاذقية وحتى عكا، وفينيقيا اللبنانية التي تضم البقاع وسلسلة جبال لبنان الشرقية وصولاً إلى دمشق وتدمر. وقد حلت تسمية جند دمشق محل التسميتين الرومانيتين بعد الفتوحات الإسلامية، ولكن المصادر المسيحية عموماً تعتمد التقسيمات الإدارية الرومانية، لأن خارطة التراتبية الكنسية وضعت أثناءها.

وفي تشرين عام 1135 [824م] هاجم عبد الله بن طاهر كيسوم، وابتنى بيوتاً استعداداً للشتاء، وأقام أبراجاً ليرمي منها حجارة كبيرة، كل منها بقدر حمل حمار. فقد كان لكيسوم خمسة أسوار وخندق.

فأمر نصر أن تصعد نساء مسيحيات وهن حاملات أطفالهن ويبكين ويولولن ويلتمسن أن لا يُرجمن بالحجارة داخل المدينة، بل على السور فقط.

غير أن نصر فتح أخيراً أبواب المدينة بعد أن رأى أن معظم أتباعه استسلموا للأمير، وأرسل أولاده الثلاثة ومعهم 200 حمل سميد و300 جمل محملة بالشعير و500 رأس غنم و10 خيول و10 عبيد وثلاث جواري وثلاثة خصيان مع فضة وذهب وهدايا لجميع الزعماء، قائلاً: اقبل هديتي، وليمكث أبنائي عندك حتى الصباح فأحضر أنا أيضاً.

فقبل عبد الله بن طاهر هديته وأوعز إلى الشباب أن يعودوا إلى ذويهم لئلا يقلقوا من ناحيتهم. وفي الصباح، خرج نصر وترجل من بعيد ثم دنا من عبد الله وقبَّل رجله ويده. فترجل حينذاك الأمير، وجلس كلاهما يتجاذبان أطراف الحديث سراً.

ثم سمح الأمير لنصر بالدخول إلى المدينة على أمل أن يتوجه إلى الرقة بعد 25 يوماً. وإذ كان الأمير وديعاً، صدقه، وأوعز إلى قواته أن يبيعوا كل ما هيأوه للشتاء، فخرج أبناء كيسوم بحريتهم.

وبعد أن غادر عبد الله بن طاهر، أخذ نصر يعيد بناء وتحصين كيسوم. وأخبر عبد الله المأمون باستسلام نصر ففرح، ثم توجه عبد الله إلى شميشاط، فحاول المتمرد

يابش الذي كان فيها التملص، لكن الأمير قبض عليه وأرسله مخفوراً إلى معتقل الرافقة[1].

إخضاع نصر

في هذه الأثناء توفي طاهر في خراسان، فأرسل الخليقة الابن الثاني لطاهر ليخلف أباه، وكتب رسالة مؤاساة إلى عبد الله، وقال له: لطالما استسلم نصر، اذهب أنت إلى مصر وأحلَّ الوفاق هناك، لكن المأمون كان قد ضرب مؤخرة السفينة[2]، لأن نصر تمرد من جديد.

ولما كتب إليه عبد الله بن طاهر ليحضر ويلتقي به، أجاب: إنني مستعد لمحاربتك، أما من جهة ابني منصور فلا تعتقله في بغداد فحسب، بل لك أن تشويه بالنار وتأكله. فأشعر عبد الله بن طاهر الخليفة المأمون بذلك، فغضب الخليفة وحكم على عبد الله بن طاهر بالموت لأنه ترك نصر بعد أن صار في قبضته.

حصار كيسوم

عند ذلك أسرع عبد الله بن طاهر وحاصر كيسوم للمرة الثانية في آب، فحدث ضيق في المنطقة بسبب إكراه الناس على إعداد الطعام للجيش، فانتشرت المجاعة في كل مكان، وقبل الشروع بالحرب، دعا عيسى قائد الجيش من السور وقال: يا نصر، أنا عيسى أتحدث إليك. لقد اقترفت جرائم أكثر من قدرتك، ولما عدت قبلك الخليفة الرؤوف، فاخرج الآن وقابل الأمير، فقد أخذت جزاء تمردك، وأني أكفلك.

---

(1) الرافقة مدينة بناها المنصور تقع حالياً ضمن مدينة الرقة الحالية، ويبدو أن مقام صاحب الشرطة كان فيها.

(2) ضرب مؤخرة السفينة مثل سرياني يعني أن الضربة لم تكن قاضية.

أجاب نصر، أن هذا الكلام لا يدخل مسمعي، ولا وفاق لي معكم، كما ليس للذئاب وفاق مع الحملان. واشتبك الطرفان بقتال عنيف، وقتل معظم سكان المدينة بالحجارة، ولم يدع نصر أحداً يبكي على الميت، بل كانوا يدفنونهم كالكلاب.

وكان يقطع بالسيف رأس كل من يهرب من المعركة أو ينزل من السور، ولما اشتد القتال وانهار السور الخارجي، أصعد نصر النساء إلى السور وهن حاملات أطفالهن وباكيات، فأمر عبد الله بإيقاف القتال لدى سماعه الصراخ.

وبنى الجيش بيوتاً للشتاء. وإذ رأى نصر أن الجوع قد استحكم في المدينة، وأخذ الناس يأكلون لحم الحمير حتى بيع رأس الحمار بعشرة فلوس، وأن لا أمل له بالنجاة ولم يفلح في الهروب، أرسل إلى عبد الله ليقبله، فأجابه، ولئن كنت لا تستحق، ولكن بسبب صراخ المساكين أرسل ولديك مع أربعين شخصاً لأتحدث إليهم.

فلما ذهبوا قال: إذا اعتبرتم أنفسكم رهائن فسنوقف القتال حتى يأتينا الجواب من الخليفة، فأجابوا بصوت عال: اصنع ما يريك الله إياه.

ووصل جواب الخليفة مخولاً عبد الله بن طاهر أن يتصرف معهم كما يشاء. فخرج نصر بكل بساطة يحرسه بضعة رجال فقط وقابل عبد الله وطلب منه مدينة كيسوم فرفض، ثم هتف الطرفان، ما أعظمك يا الله للخلاص الذي أعددته. وللحال أُرسل ذوو نصر إلى قرية صغيرة كان قد ابتناها في سروج بالقرب من أنقاض مدينة قديمة تدعى ديميتير، التي كان قد دمرها سنحريب وسُخر رجالها لحمل حجارة سورها على رقابهم ورميها في الفرات.

وكان قديماً وعلى بعد 12 ميلاً من الفرات، أربع مدن في سروج، هي: ديميتير التي ذكرناها، وبطنان المعروفة بـ(مأوى الأسود) وكان قدوتها مار يعقوب

السروجي الزائر قبل رسامته أسقفاً، و...[1] التي تعرف اليوم بـ(حصن ابن نونا)، وكيسوم التي دكت أسوارها بإيعاز من الأمير.

واستسلم إثر ذلك نصر ورفاقه، وطلبوا إلى الحراس أن يعدوا لهم خيولاً وبغالاً.

تم هذا الخلاص في آذار سنة 1136 [825م]، وقد تكبدت الجزيرة والغرب [أي سوريا] عذاباً من المتمردين مدة 14 سنة، حتى تمكن عبد الله، هذا الرجل الرزين، أن يشيع فيهما السلام بصورة تامة.

مهمة في مصر

لقد سرَّ المأمون لدى تلقيه نبأ اعتقال نصر بن شبث الذي أرسل إليه مع بقية المتمردين إلى بغداد، ورغم كل طغيان نصر فقد أحب المسيحيين، وكان يفرض جزية مضاعفة على الذين ينحرفون عن المسيحية، وكان يقول: لطالما تدفعون لي الجزية، لكل واحد ملء الحرية أن يتبع الدين الذي يشاء، وقد ارتد فعلاً الكثيرون من المساجد إلى الكنائس. وكان يقطع رأس من يغتصب امرأة، وقتل العديد من أتباعه لهذا السبب.

وبعد ان انتهى من نصر أناب عبد الله بن طاهر عنه أخاه محمد بن طاهر، وتوجه إلى المنطقة الغربية، ففتح فلسطين سلماً، وأخضع حسن المتمرد في صور وألزمه بعدم مغادرة حيِّه، وإذ أخلَّ بوعده، أرسل فقتله.

---

(1) اسم هذه المدينة القديم غير واضح في المخطوط السرياني الأصلي.

ثم اتجه صوب القدس وأدى الصلاة في العتبات المقدسة التي لهم هناك. وطاف في الأماكن التي تجول فيها المسيح، ثم نزل إلى مصر.

حرب البصريين والبحرينيين

في سنة 1136 [825م] أخذت الحمية أبناء البصرة، فركب السفن نحو ثلاثين ألف منهم متجهين إلى البحرين[1] ليقتلوا سكانها لممارستهم القرصنة في البحر ومنعهم التجار والسفن القادمة من الهند والصين وفارس، من الوصول إلى البصرة وبغداد.

ولدى نزولهم إلى البر، شعر بهم أبناء البحرين فهربوا مع عائلاتهم إلى إحدى الجزر، وكان لتلك الجزيرة معبر يؤدي إلى طريق وعر لا يستطيع الغريب سلوكه، وإذ حاول البصريون الوصول إليهم، انجرفوا نحو العمق فلحق بهم البحرينيون بالقوارب وأغرقوا جميعهم.

محاولة القرشيين اغتيال المأمون

في هذه الأثناء نُمي إلى المأمون أن بني قريش يتآمرون عليه، فقبض على أربعة من رؤسائهم وسجنهم مكبلاً إياهم بالأغلال. وإذ قطعوا أملهم من الحياة. اتفقوا

(1) البحرين مصطلح قديم، يدل على منطقة تاريخية كانت تقع في شرق شبه الجزيرة العربية، امتدت من البصرة شمالاً إلى عُمان جنوباً على طول ساحل الخليج العربي، وقد شملت المنطقة الشرقية من المملكة العربية السعودية الحالية والكويت وقطر والإمارات وأوال، مملكة البحرين حالياً، وجزءاً من عُمان، وكانت الإحساء عاصمة هذا الإقليم.

سراً مع بعضهم البعض ليضرموا النار في السوق الكبيرة المسماة الكرخ[1]، حتى إذا حضر الخليفة هناك، أرسلوا من يغتاله.

فشعر الخليفة بهذه المؤامرة، فذهب ليلاً إلى السجن وقتل القرشيين وعاد إلى بلاطه. وفي الصباح علق الجثث على أعمدة خشبية، فدب الذعر في الجميع، ولم يصدق أفراد حاشيته بأن عزوفه عن قتلهم لم يكن ضعفاً بل رحمة. وألقي القبض أيضاً على إبراهيم عم الخليفة، غير أن الخليفة لم يعدمه نظراً إلى شيخوخته[2]. وقد كان هذا قد تعلم العزف على قيثارتهم [العود]، فكان يشتري صبياناً وبنات ويثقفهم ثم يبيعهم بآلاف الدنانير.

---

(1) الكرخ، وتلفظ بالكاف في آخرها في بلاد الشام أي الكرك، تسمية آرامية دخلت إلى اليونانية وباقي اللغات الأوربية، وهي بمعنى المكان المسيج أو الحصين، والمقصود هنا الجانب الغربي من بغداد الذي بنيت فيه الأسواق في عهد أبي جعفر المنصور وخلفاءه.

(2) يروي الطبري في تاريخه، (ج 7: 175 - 176)، هذه القصة في حوادث سنة 210 هـ كما يلي: (وفيها) ظهر المأمون على إبراهيم بن محمد بن عبد الوهاب ابن إبراهيم الإمام الذي يقال له ابن عائشة، ومحمد بن إبراهيم الإفريقي، ومالك بن شاهي، وفرج البعواري، ومن كان معهم ممن كان يسعى في البيعة لإبراهيم المهدي، وكان الذي أطلعه عليهم وعلى ما كانوا يسعون فيه من ذلك عمران القطربلي.. بعد أن ضربوا بالسياط ما خلا عمارا فإنه أومن لما كان من إقراره على القوم في المطبق فرفع بعض أهل المطبق أنهم يريدون أن يشغبوا وينقبوا السجن وكانوا قبل ذلك بيوم قد سدوا باب السجن من داخل فلم يدعوا أحدا يدخل عليهم فلما كان الليل وسمعوا شغبهم بلغ المأمون خبرهم فركب إليهم من ساعته بنفسه فدعا بهؤلاء الأربعة فضرب أعناقهم صبرا وأسمعه ابن عائشة شتما قبيحا فلما كانت الغداة صلبوا على الجسر الأسفل، فلما كان من الغداة يوم الأربعاء أنزل إبراهيم بن عائشة فكفن وصلى عليه ودفن في مقابر قريش وأنزل ابن الإفريقي فدفن في مقابر الخيزران وترك الباقون.. وذكر أن إبراهيم بن المهدي لما أخذ صير به إلى دار أبي إسحق ابن الرشيد وأبو إسحق عند المأمون، فحمل رديفا لفرج التركي، فلما أدخل على المأمون قال له هيه يا إبراهيم، فقال يا أمير المؤمنين ولي الثأر محكم في القصاص والعفو أقرب للتقوى ومن تناوله الاغترار بما مد له من أسباب الشقاء أمكن عادية الدهر من نفسه، وقد جعلك الله فوق كل ذي ذنب فما جعل كل ذنب دونك، فإن تعاقب فبحقك وإن تعف فبفضلك، قال بل أعفو يا إبراهيم فكبر ثم خر ساجدا..

أحوال مصر

في الوقت الذي كان نصر بن شبث معلناً العصيان في سوريا، كان العصاة قد عاثوا الفساد في مصر أيضاً، ثم سيطر عليها شخصان هما السري بن الحكم، وعبد العزيز الجروي وفرضا الجزية وجمعا أموالاً طائلة[1].

وبعد وفاتهما، خلف عبيد الله أباه السري على الفسطاط والمقاطعة الجنوبية، وخلف أحمد [2]والده الجروي على المقاطعة الشمالية من مصر، على الرغم من سيطرة الأندلسيين على الإسكندرية.

---

(1) السري بن الحكم بن يوسف بن المقوم مولى من بني ضبة وأصله من بلخ من قوم يقال لهم الزط، أمير مصر وليها بإجماع الجند وأهل مصر على الصلاة والخراج معًا في مستهل شهر رمضان سنة مائتين بعد عزل المطلب عنها بالتحالف مع عبد العزيز بن الوزير الجروي، واستمرّ واليًا على مصر حتى ربيع الأول سنة 201هـ سبتمبر 816م عندما ثار عليه أعيان الخراسانيين بمصر وادَّعوا أن كتابًا جاءهم من طاهر بن الحسين بتعيين سليمان بن غالب بن جبريل البجلي والياً على مصر، فقبض سليمان على السري وسجنه في الصعيد وتولى حكم مصر، ولكن الخراسانيين ما لبثوا أن ثاروا على سليمان وعزلوه وولوا بدلاً منه علي بن حمزة في أوَّل شعبان سنة 201هـ/ يناير 817م. وفي الثالث عشر من الشهر نفسه جاء أمر الخليفة المأمون بتعيين السري بن الحكم واليًا على مصر، ولكنه لم يستطع الانفراد بالحكم؛ فقد خرج عليه حليفه السابق عبد العزيز بن الوزير الجروي الذي استولى على الإسكندرية والوجه البحري وترك للسري الفسطاط والصعيد، وظلّ الحليفان السابقان في صراع مستمر حتى وفاة عبد العزيز في صفر سنة 205هـ أغسطس 820م، ولم يمكث السري بعد وفاة خصمه طويلاً؛ إذ ما لبث أن وافتْه المنية في جمادى الأولى من السنة نفسها.

(2) يرد في المصادر العربية الإسلامية باسم علي بن عبد العزيز بن الوزير الجروي.

ولما وصل عبد الله بن طاهر إلى العريش سنة 1137 [826م] زاره أحمد، فتعهد له بالإبقاء على ثروته، وكان والده الجروي قد جمع ذهباً وصبه على شكل لبنات ودفنه، وقال لذويه إني أخجل من الأرض، وذلك لكثرة الذهب الذي أودعه فيها.

أما ابن السري الذي كان أكثر ثراء، وكانت مدينته محصنة، ويمتلك ثمانين ألف رجل، معظمهم ماديون[1]، فتصدى له، فخاف عبد الله بن طاهر لأنه كان قد ترك جيشه في فلسطين، فأوفد إليه ثلاثة رجال مسنين ليفاوضوه بخصوص السلام، فقال بصلافة: إني تحت طاعة الخليفة وعامل له.

فاختر أنت أحد الأمور الثلاثة، إما أن تكلف واحداً من قبلك بجمع الجزية من مصر عندما أصبح مسؤولاً عنها، أو أطلب الجزية وأنا أرسلها دون أن تأتي إلى هنا، أو استعد للقتال. فلم يحرك عبد الله بن طاهر ساكناً حتى وصلت قواته التي كانت في الغرب والجزيرة، لقتال عبيد الله بن السري. وفي نيسان غزا الفسطاط. فلما رأى عبيد الله أن وطيس الحرب قد اشتعل، وقُطعت عليه طرق الإمداد، أرسل يقول لعبد الله بن طاهر: يا أميري أود أن تحل نعمة السلام دون توسط أحد، وعليه فإني سأغادر غداً.

فأجاب الأمير، حيث إنك اتخذت هذا الموقف، فأنا أيضاً أتعهد بسلامة أسرتك وكل ممتلكاتك. فتوجه ابن السري على الفور إلى عبد الله، وتم السلام وتناولا الطعام سوية.

---

(1) الميديون شعب قديم استوطن الجزء الشمالي الغربي من إيران، وهناك شعوب معاصرة كثيرة تعتبر نفسها امتداد لهذا الشعب الإيراني القديم على رأسهم الأكراد واللور والأصفهانيون. والغريب أن يذكر البطريرك التلمحري اسمهم القديم، فهذه الإشارة تدل على أن اسمهم كان ما يزال متداولاً في الفترة التي كان الأكراد يتسمون باسمهم أيضاً.

الأندلسيون في الإسكندرية

لدى استيلائهم على الإسكندرية، أخرج الأندلسيون[1] منها المسيحيين واليهود، وسكنوا دورهم، فطلب إليهم عبد الله بن طاهر أن يرسلوا عشرة ليختار أحدهم رئيساً لهم، فأرسلوا بعض رعاعهم فطردهم وأمر أن يُرسل فلان أو فلان، فلم يذعنوا. فحاصر قلعتها في آذار عام 1138 [826م] لأن المدينة كانت خربة إلا من أنقاض الكنائس العظيمة والبيوت الفخمة، ولا يتواجد السكان سوى في الضواحي.

وبعد تسعة أشهر من الحصار والقتال استسلموا وطلبوا أن يشتروا بيوتاً لسكناهم فرفض المسيحيون، الأمر الذي اضطرهم للعودة إلى بلادهم، في حين أُرسل خمسون منهم مع عائلاتهم إلى الرقة.

---

(1) استولى الأندلسيون على الإسكندرية عندما غزاها في خلافة المأمون أبو حفص عمر بن عيسى الأندلسي المعروف بالأقريطشي أحد قادة الثورة على الأمير الحكم بن هشام الربضي (180-206هـ) (796-822م) أمير الأندلس، الذي ساءت العلاقة بينه وبين الفقهاء ورجال الدين لانغماسه في اللهو، فصاروا يعرضون به في خطبهم على منابر المساجد، ويرمونه بالفسق والفجور ويلقبونه بالمخمور ويحرضون الناس على عزله. ويقول المقري في نفح الطيب: كانت له الواقعة الشهيرة مع أهل الربض من قرطبة لأنه في صدر ولايته كان قد انهمك في لذاته فاجتمع أهل العلم والورع بقرطبة أمثال يحيى بن يحيى الليثي صاحب مالك وأحد رواة الموطأ عنه، وطالوت الفقيه وغيرهما، فثاروا به وخلعوه وبايعوا بعض قرابته، وكانوا بالربض الغربي من قرطبة، وكان محلةً متصلةً بقصره، فقاتلهم الحكم فغلبهم وافترقوا وهدم دورهم ومساجدهم، ولحقوا بفاس من أرض العدوة، وبالإسكندرية من أرض المشرق، ونزل بها جمع منهم، ثم ثاروا بها، فزحف إليهم عبد الله بن طاهر صاحب مصر للمأمون بن الرشيد، وغلبهم، وأجازهم إلى جزيرة إقريطش، فلم يزالوا بها إلى أن ملكها الإفرنج من أيديهم بعد مدة.

وبعد أن أحكم سيطرته على مصر، وضع نصب عينيه السيطرة على إفريقيا[1] برمتها، فأرسل وقبض على ثمانين شخصاً كانوا عائدين من مكة، وأمرهم أن يكتبوا إلى مواطنيهم ليتوجهوا إلى الأمير ليقيم لهم رئيساً منهم.

فلما علم الأفارقة بالقبض على رفاقهم، واستناداً إلى ما سمعوه عن معاملة عبد الله بن طاهر الطيبة، شخصوا إليه، فعين اثنين ممن توسم فيهما العدالة، واصطحب الباقين إلى الخليفة المأمون، ثم ذهب إلى الرقة سنة 1139 [828م] وأسكن الذين اصطحبهم في أنازربيون[2] بقيليقية.

---

(1) إفريقيا الاسم القديم للمغرب الأوسط الذي يضم تونس وأجزاء من غربي ليبيا وشرقي الجزائر حالياً. وقد تعددت النظريات في أصل التسمية، فمن قائل إنها من أصل فينيقي إلى قائلين بأصلها البربري إلى اليوناني وحتى المصري القديم.. ولكن مما يلفت الانتباه أن الرحالة المقدسي البشاري في كتابه (أحسن التقاسيم) يشير إلى جنس الأفارقة في بعض مدن ليبيا وتونس والجزائر، كما يتحدث في الوقت نفسه عن البربر كجنس مختلف، وكذلك عن العرب، وهو ما يشير أن الأفارقة هم جنس خاص نرجح أنهم بقايا الفينيقيين سكان إفريقيا القدماء.

(2) تسمى أنازربا في المصادر السريانية أو انازربيوم في المصادر اليونانية القديمة، وعين الزربة في المصادر العربية الإسلامية، وهي مدينة قديمة تقع في كيليكيا بتركيا الحالية قرب نهر جيحون.. وقد أعيد بناؤها من قبل هارون الرشيد في 796 م، وحصنت ثانية بشكل جيد على نفقة سيف الدولة الحمداني في القرن العاشر الميلادي، ثم نهبها وخربها الصليبيون.

الرحلة الأولى إلى مصر

دواعي الرحلة

ابتدأ هدم كنائس المسيحيين في تكريت أولاً، في عام 1126 [815م] عندما قاوم الناس باسيل مطران تكريت لعجرفته وتصرفاته غير المهذبة، ليس بالنسبة إلى أبناء الكنيسة فحسب، بل كان أحياناً يتكابر حتى على وثنيي تكريت.

ولم يكتف بالتدخل في شؤون الكنيسة، بل تدخل أيضاً في ما يخص الضرائب العامة التي ليست من شأنه، وتقرب كثيراً من الحاكم، كما تدخل في ما يخص الجزية حتى بلغ إلى درجة فرض الجزية على المسلمين، وقد لحق الأذى بالشعب بسببه، وقتلت في الشوارع جميع الخنازير، ورغم كل ذلك لم يرعو، بل اصطحب جماعة ونزل إلى بغداد ليقدم شكوى ضد المسلمين، فلحق به المسلمون ودخلوا أولاً وقدموا مذكرة ضد المسيحيين في ما يخص النواقيس والصلبان والخمر، مدعين أن الخنازير تدخل المساجد، واتهموا المطران باسيل والرئيس عبدون بشتم نبيهم.

فصدر قرار بإلغاء الشعائر المسيحية وإلقاء القبض على باسيل وعبدون، فهرب المطران، أما عبدون فقدم شهادة للمسيح، حيث أغراه المأمون بالأموال والمناصب ليشهر إسلامه، ثم استعمل التهديد والوعيد والعذاب دون أن يفلح فزجه في

السجن، وبعد أن أمضى سبعة أشهر في السجن تحت التعذيب رحل أخيراً مستشهداً بحد السيف في وسط دار القضاء، وعلق على خشبة، وقد رافقت استشهاده آيات وعجائب كثيرة وعظيمة.

أما باسيل الذي كان يتوعد المسلمين بإخراجهم من بيوتهم، فلم يعد يستطيع حتى الدخول إلى تكريت، فهجر كرسيه بقصد التمرد على كرسي أنطاكية. والأنكى من هذا فإنه لم يتعظ بما حلّ به.

ثم انتقل هذا التأديب إلى الجزيرة والغرب.

وفي سنة 1136 [825م]، طالنا التأديب بسبب خطايانا. فأثار علينا إبليس[1] حرب تدمير الكنائس. فقد كان ليقظان[2] في الرها، كاتب خلقيدوني يكره المسيحيين[3] يدعى الوليد. فلما شكوه ليقظان زاد في إكرامه نظراً إلى المساوئ التي كان يلحقها بالمسيحيين، فلم يحتمل الرهاويون، فتوجهوا إلى مصر لمقابلة الأمير عبد الله بن طاهر، ورفعوا شكوى ضدهما كليهما، فلما شعر الوليد بأنه سيسقط لا محالة، حرض يقظان على هدم كنائسهم. فكتب إلى حاكم الرقة ليزيد من ضغطه على الرهاويين وعلى مطرانهم ثاودوسيوس شقيقي الأصغر.

---

(1) أصل الاسم في اللغة اليونانية (ديابولس) ومعناه المشتكي زوراً أو (الثالب). والكلمة (ديابوليس) في العهد الجديد (الانجيل) باللغة اليونانية ترجمت في العربية في معظم الأماكن بكلمة إبليس وفي مواضع قليلة ترجمت بالشيطان أو الثالب. وهو روح شرير أوشيطان وعدو الخير. وقد استخدمت هذه الكلمات كمرادفات.

(2) هو يقظان بن عَبْد الأعلى بن أَحْمَد بن يزيد بن أسيد السلمي، ولي إقليم الثغور والعواصم في عهد الخليفة المأمون له ذكر في فتوح البلدان للبلاذري عند الحديث عن فتوح الجزيرة.

(3) يقصد هنا أن الوليد كان مسيحياً ملكياً يتبع الكنيسة البيزنطية، وكان يكره أتباع الكنيسة السريانية. ومن الواضح أن البطريرك التلمحري كان يعتبر أتباع عقيدته فقط هم المستحقين لاسم المسيحيين.

وإذ كان يبغض المسيحيين هو الآخر، تحدث في الموضوع مع الأمير محمد بن طاهر، فانخدع بكلامه، وأصدر أمراً بهدم كافة الأبنية الحديثة، فهدموا كنيسة الأربعين شهيداً والقلاية الأسقفية ومخزن الكنيسة وجرن المعمودية والمنبر وغير ذلك من الأشياء التي كان قد نظمها ثاودوسيوس، كما هدموا دير النساء للخلقيدونيين[1] وإحدى كنائسهم، وشيدوا مسجداً أمام الكنيسة القديمة في ططرافولون، في الموقع المعروف بـ(مجلس السبت) وهو بناء تعلوه قبة، كان يجتمع فيه الشيوخ والرؤساء بعد رتبة الصباح، يتجاذبون أطراف أحاديث كتابية وكنسية وسواها، حتى ميعاد الغداء. وطلب إليهم أيضاً تسليم عبيدهم ليعتنقوا الإسلام، فلما علم بهذا مسلمو حران اندفعوا نحو الكنيسة ليهدموها ويزعجوا المسيحيين.

ولدى سماعنا هذه الأنباء ونحن في نصيبين[2]، اصطحبنا الأساقفة وسافرنا إلى مصر لمقابلة الأمير عبد الله بن طاهر.

مدينة تنيس

ركبنا السفينة من يافا، أما ثاودوسيوس والآخرون فساروا بطريق البر. وهاج البحر وأوشكت السفينة على الغرق، واشتدت العاصفة حتى قطعنا الرجاء من الحياة.

---

(1) نسبة إلى مجمع خلقيدونية الكنسي عام 451م، الذي انشقت على إثره الكنيسة، فسمي أتباع الكنيسة البيزنطية اليونانية خلقيدونيين، فيما سمي المخالفون مونوفيسيون، وأتباع العقيدتين يطلقون على أنفسهم اسم الأرثوذكس.

(2) نصيبين مدينة في محافظة ماردين، بجنوب شرق تركيا يسكنها حالياً أتراك وسريان وعرب وأكراد. وتقع على الحدود التركية السورية بمقابل مدينة القامشلي السورية، والمسافة بين المدينتين أقل من 5 كم.

وبعد يومين قُذفنا إلى ميناء مدينة تنيس[1] حيث استقبلنا أكثر من ثلاث ربوات[2] من سكانها، وهي في شبه جزيرة تحيط بها سواحل نهر النيل وبحر أدرياس[3]، كما أنها محاطة بالماء بدلاً من السور.

وصل أهل تنيس إلينا على الزوارق واندفعوا لنيل البركة، ومنذ الصباح وحتى المساء بالكاد استطعنا الوصول إلى حدود المدينة من شدة الازدحام، حتى جاء جند من المدينة وفرقوا الشعب بالعصي وأخذونا إلى الكنيسة، فزارنا يعقوب بابا الإسكندرية وأساقفته ورحبوا بنا معبرين عن سرورهم بوصول بطريرك آخر إلى الإسكندرية بعد مار سويريوس[4].

فتحدثنا عن الاتحاد الذي حققه مار اثناسيوس الجمال[5] مع البابا انسطاس[6] بعد الانشقاق الذي حدث بينه [البطريرك أثناسيوس الجمال] وبين البابا دميان[7].

---

(1) تنيس جزيرة مصرية تقع في محافظة بورسعيد في مصر جنوب غرب مدينة بورسعيد في بحيرة المنزلة. وقد وصفها المهلبي في الكتاب العزيز كما يلي: أما تنيس فالحال فيها كالحال في دمياط، إلا أنها أجل وأوسط وبها تعمل الثياب الملونة، والفرش البوقلمون، وبُحَيرتها التي هي عليها مقدار إقلاع يوم في عرض نصف يوم، ويكون ماؤها أكثر السنة ملحاً لدخول ماء بحر الروم إليه عند هبوب ريح الشمال، فإذا انصرف نيل مصر في دخول الشتاء وكثرَ هبوب الريح الغربية حلت البحيرة وحلا سيف البحر الملح مقدار بريدين حتى يجاوز مدينة الفرما، فحينئذ يخزنون الماء في جباب لهم ويعدونه لسنتهم، ومن حذق نوَاتي البحر في هذه البحيرة، إنهم يقلعون بريح واحدة يريدون القلوع بها حتى يذهبوا في جهتين مختلفتين فيلقى المركب المركب مختلف السير في مثل لحظ الطرف بريح واحدة. قال وليس بتنيس هوَامٌ مؤذية لأن أرضها سبخة شديدة الملوحة.

(2) الرُّبوة بضم الراء، عشرة آلاف من الرجال، والجمع الرُّبي (لسان العرب مادة ربا).

(3) المقصود البحر الأبيض المتوسط أما بحر أدرياس أو ادرياتيك، فهو بحر هامشي على الساحل الأوروبي من المتوسط عن خليج البندقية، ينسب للمدينة الإيطالية أدريا.

(4) سويريوس أو ساويرس، بطريرك الكنيسة السريانية من عام 512 إلى 538م، زار مصر أكثر من مرة وهو من القديسين الذي لهم مكانة مميزة لدى الأقباط.

(5) أثناسيوس الأول الجمّال، بطريرك الكنيسة السريانية من عام 595 إلى 631 م.

(6) البابا انسطاسيوس بطريرك الكنيسة القبطية الأرثوذكسية من عام 605 إلى 616م.

(7) البابا دميان بطريرك الكنيسة القبطية الأرثوذكسية من عام 569 – 605م.

فبدا لنا عدم اكتراثهم بمعرفة التاريخ حيث أنهم تعثروا بالكلام، لكن يعقوب ولئن كان ضعيفاً في المعرفة والإدارة، إلا أنه كان فاضلاً تقياً.

لقد تأخرنا كثيراً في المدن، لأن الشعب لم يكن ليسمح بمغادرتنا المدينة إلا بعد إقامة الذبيحة ومناولتهم، ذلك أن المصريين يعتزون كثيراً بتناولهم من يد البطريرك، لذا سبقنا ثاودوسيوس وأخبر الأمير عمّا صادفنا في البحر.

ولما دخلنا إليه في معسكر الفرس، عاتبني لسلوكي طريق البحر، ونظراً إلى احترامه لي قال: ما الذي دعاك أن تأتي إلى مصر وأنت شيخ ولك مثل هذه الرئاسة، فإن رسالة منك كانت تفي بالغرض، فتضمنها ما تريده لا سيما وأن أخاك هو صاحب الأمر.

فأجبت: يا صاحب العظمة، إن هذا المطران يسعى لشخصه بسبب ما كابدته الرها. أما أنا فأكثر تألماً لهدم كنائسنا وإبطال شعائرنا.

مأساة تنيس

وكانت مقابلتنا له ليلاً لانشغاله نهاراً بالحرب، وكان حديثنا مفيداً. وسلمت إليه رسائل أهل الجزيرة والغرب وشكاواهم من عماله، ورويت له مأساة مدينة تنيس المصرية المؤلمة، التي ولئن كانت تعج بالسكان والكنائس، إلا أننا لم نجد فقراً أشد من فقر سكانها. فقد سألناهم كيف تردت أحوالهم إلى هذا الحد، فأجابونا قائلين: إن المياه تحيط بمدينتنا من كل حدب وصوب وليس لنا زرع أو غلة أو فلاحة، ولا يمكننا اقتناء الأموال، والمياه التي نشربها تأتينا من بعيد ونشتريها بجهد جهيد كل أربع جرار بدرهم.

أما شغلنا فهو الكتان تغزله النساء بالمغازل ونحن ننسجه بالنول بأجرة قدرها نصف درهم نتقاضاها يومياً من التجار أصحاب الأدوات، ولا يكاد شغلنا يكفي قوت يومنا. وحينما يحين موعد الضريبة، يفرضون على كل بيت خمسة دنانير، فنعاني من ذلك ونلقى في السجون. وفي غمرة ضيقنا نرهن لهم أحباءنا، أجل إننا نرهن لهم أبناءنا وبناتنا ليعملوا كعبيد عندهم، وقد يحدث أن امرأة أحدنا أو ابنته تلد عندهم، فيحذروننا من رفع الشكوى ضدهم، والأنكى هو أنه قبل بلوغ الأوان لفدية المرأة أو البنت، تأتي ضريبة السنة التالية، فيطالبوننا، بالإضافة إلى الرهائن، بدفع مبلغ آخر، وهكذا يظل أولادنا وبناتنا عبيداً للمسلمين طيلة حياتهم. لذا طلبوا إليَّ أن أطلعك أيها الأمير على مأساتهم لكي ترأف بهم.

فأمر أن يدفعوا الجزية أسوة بأهل الجزيرة، أي 48 قرشاً للكبار و24 للوسط و12 للوسط و12 للفقراء، وذلك بحسب إحصاء النفوس.

توصية لأمير الجزيرة

وبعد ذلك زودنا بتوصية بإعادة بناء كل ما تهدم في الرها، وبمنع هدم أية كنيسة في أي مكان، وأنفذ رسالة إلى أخيه محمد ذيلها بتوقيعه جاء فيها : (يا هذا، لا أعتقد بأنك آلة أعلى من كرسينا، فإن معسكري قد امتلأ من الأساقفة والرهبان الأكرمين الرافعين شكوى ضدك، متذمرين من الظلم الذي تكبدوه منك من جراء هدمك كنائسهم، لا سيما البطريرك وأخوه مطران الرها، وأنا أعرفك شاباً غير مهذب. ولا يخفاك، فإني أعرف الذين حرضوك للتعدي على المسيحيين، فهم لا يودون تقريبك إلى الله بعملهم هذا، بل إكمالاً لرغبتهم لا غير).

وبعد جدال طويل أوصاه بالامتناع عن أذانا وسلمنا الرسالة، فتناولها المطران من يد أحد الكتّاب وفتحها ونسخها، ثم أعاد غلقها. فلما تسلمها محمد أمر بوقف العاصفة، فخرج السجناء.

لقد تم هذا الخلاص سنة 1137 [826م]. في حين تم خراب الكنائس في ولاية يقظان الذي صعد بعد خمسة أشهر على رأس جيش إلى بلاد الروم، حيث قتل وقضي على جيشه. وكان ذنبه على جنبه.

الرحلة الثانية إلى بغداد

نتحدث هنا عن الحرب التي أثارها إبليس ضدنا في عام 1139 [828م] لنشترك نحن أيضاً بالآلام من أجل الكنيسة، كما فعل أسلافنا الأساقفة عندما تكالب بعضهم على حب الزعامة مثل سركيس الزوقنيني ضد سويريوس بن مشاقة، ودنحا مطران تكريت ضد يوليان، وأثناسيوس وإسحاق ضد إيوانيس، ويوحنا وداود ضد جاورجي، وأبيرام ضد قرياقس، فهؤلاء عملوا على تمزيق الكنيسة بدافع حب الزعامة.

ففي الوقت الذي كان الرب قد أبعد عنا انشقاق البدع، ابتلانا بشكاوى وتذمر المرعيث[1] من أساقفتهم، وتوجيه تهم غير لائقة برؤساء الكهنة.

فقد حذرنا فيلكسينوس أسقف نصيبين من دخول المدينة، حتى الانتهاء من التحقيق في التهم الفظيعة التي وجهها إليه أرخدياقون[2] نصيبين نونا الرجل الشهير بفضله[1]، وأبا رائطة التكريتي[2]، وهما فيلسوفان بليغان.

---

(1) المرعيث مجمع يضم الأبنية الدينية التابعة للأبرشية، ويسمى عادة على اسم أحد القديسين، ويعيش فيه الأكليروس التابعين لأسقف الأبرشية، والذين يطلق عليهم اصطلاحاً المرعيث.

(2) أرخدياقون كلمة يونانية تعني رئيس الشمامسة وهي نفسها أرشدياقون والشدياق.

وقد استغرقنا ست سنوات في التحقيق في قضيته على أمل أن يوجد الرب حلاً ومخرجاً يحسن له، كي لا تهان الكنيسة المقدسة بسبب التحقيق معه.

وإذ لم يكف عن إثارة الشغب وخلق الانشقاق في المدينة، جمعنا 40 أسقفاً في دير أسفولس بالقرب من رأس العين وعزلناه، فاستخف بأحكام الله، ورفض الدعوة لحضور المجمع، وتوجه مع تابعيه إلى بيت قروسطاي[3]، وجذب إليه أبيرام وزبانيته الذين كانوا يصرون أسنانهم على فيلكسينوس خلال المجمع الذي عقده البطريرك قرياقس في جبرين[4]، وأدخلوا إلى كنيسة نصيبين، ذاك الذي حرمه كل من البطاركة قرياقس ومرقس ويعقوب وأساقفة سورية ومصر. وهكذا انقسمت كنيسة نصيبين شطرين.

قرار المأمون وزيارتنا له

في هذه الأثناء، أصدر المأمون قراراً يقضي بعدم معارضة أية مجموعة من عشرة أشخاص فأكثر تريد إقامة رئيس لها، وذلك من أجل إضعافنا والتحكم فينا.

---

(1) نونا النصيبيني توفي عام 845م، أرخدياقون كنيسة نصيبين كان كاتبا بليغا حَذِقًا في الجدال أوفده البطريرك قرياقس إلى بلاد أشوط ليجادل ثاودورس أبا قره الذي كان يحاول إبدال معتقد الأرمن بالمذهب الملكي ففاز على خصمه، فسر إنجيل يوحنا سنة 840 وترجمه إلى الأرمنية سنة 856.

(2) أبو رائطة التكريتي، حبيب بن خدمة، المعاصر لأبي قرّة أسقف حرّان وطيموثاوس الكبير الجاثليق. كان متعمقاً باللغة العربية له عدّة رسائل دينيّة منها رسالة في الثالوث المقدس، نشرها العالم جورج غراف مع ترجمة ألمانيّة.

(3) يبدو أن بيث قروسطاي كانت قرية أو مدينة في الجزيرة وتغير اسمها أو اندثرت فيما بعد، لأننا لم نعثر لها على أثر في المصادر الجغرافية أو التاريخية.

(4) جبرين اليوم قرية تقع على بعد 40 كم شمالي مدينة حلب وعلى بعد 6 كم من تل رفعت.

فنزل أبيرام إلى بغداد وجلب فرماناً يخوله أن يكون بطريركاً. وقد عنفه عبد الله بن طاهر مرات عديدة ولامه على تمرده، وهو ما دعانا إلى زيارة الخليفة في بغداد لإلغاء هذا القرار، حيث ساد الخوف بعد انقسام اليهود على إثر إقامة الذين في طبرية شخصاً يدعى داود حبراً لهم، في حين أقام الذين في بابل شخصاً آخر يدعى دانيال من شيعة الكنعانيين[1] الذين يحلون السبت ويحفظون الأربعاء، فلما وصلت قضيتهم إلى المأمون قرر أن يختار كل جانب من يشاء رئيساً له[2].

لما بلغنا العاصمة وقبل أن نمثل أمام الخليفة، أثار إبليس فتنة أكثر شراً من فتنة أهل نصيبين، وذلك بالتهم التي قدمها أهل بغداد إلينا ضد أسقفهم لعازر، والتي كانوا قد قدموها إلينا قبل سنتين في أنطاكية، فلم نناصر المشتكين طمعاً بالمصالحة، ولما اضطررنا إلى قراءة التحقيق وثبتت لدينا التهم، قررنا عزله، الأمر الذي لم نفكر به قط حتى ذهابنا إلى تكريت، حيث كان ينبغي أن يتم التحقيق لئلا تُهان هيبتنا في مثل تلك المدينة. فلما انشقت كنيسة بغداد، وصلت قضيتهم إلى الخليفة، وعزا أصحاب لعازر سبب ذلك الشغب، إلينا.

لقاء المأمون

غير أن الخليفة المسالم هدأ من غضبه لدى علمه بأننا جئنا لزيارته حاملين له الهدايا.

---

(1) لعله يقصد فرقة القرائين التي أسسها عنان بن داود في بغداد أيام الخليفة المهدي والتي تُرجع كتبها أصول القرّائين إلى أيام يربعام الأول أول ملوك المملكة الشمالية، أي إلى القرن العاشر قبل الميلاد.

(2) نشأ الخلاف أيام الخليفة المأمون بين رؤساء الجالوت، التي تعني رؤساء المنفى، وهو لقب أمير الجماعة اليهودية الدنيوي في بلاد الرافدين، ورؤساء المدارس أو الفقهاء (الغاؤونيم) أي الرؤساء الدينيين، مما أضعف هاتين الرئاستين، وكان المأمون يحكم بينهم حتى ضاق صدره فاتخذ القرار الذي ينص على السماح لكل عشرة أشخاص إذا اتفقوا فيما بينهم أن يقيموا رئيساً عليهم.

وبعد فترة سمح لنا بالدخول إليه فوقف الأساقفة عن بعد، وأذن لي فقط بالدنو منه حيث كان يتنزه في بستانه ممتطياً فرسه.

فبسط إلي يده كالعادة المألوفة لدى الخلفاء الذين يمدون أيديهم باحترام لأول الداخلين إليهم. فسألني: ما شأنك وكيف تسير الأمور عندكم؟

فأجبت: إننا نتمتع بسلام بوجودك، كما قال بولس لفيلكس، وقد تحسنت ظروف شعبنا في عهدك، وعليه فنحن لا نقدم لك الشكر فحسب، أيها الملك الظافر، بل ونصلي من أجل أن يطيل الرب حياتك، ثم أشار إلي لاسترسل في الحديث.

وحيث أني علمت بأن مذكرات قدمت إليك بخصوص لعازر، أردت أن يفتح لي باب الحديث عن طريق هذا الموضوع فقلت:

لم يكن لنا وللأساقفة أي غرض من مجيئنا إلى هنا، سوى زيارتك والدعاء لك، ولكن لما طال مكوثنا هنا، صادف وأن رفعت إلينا شكوى ضد أسقف هذه المدينة من قبل من كانوا موالين له، وإذ ثبتت تهم الشكوى من خلال التحقيق وشهادة الشهود، انتزعنا منه السلطة، فقاومنا مع بعض المتمردين متشبثاً بقرارك القاضي بأن كل مجموعة مؤلفة من عشرة أشخاص فما فوق بإمكانهم إقامة رئيس لها، ولا يحق لأحد مقاومته.

إنه لأمر لا يصدق أن يصدر من عدالة ملك، ونحن نؤيد معاقبة من يتجاسر ويكذب على الخليفة. فأجاب: لقد سبق وصدر عني هذا القرار بالنسبة إلى اليهود، ونحن لسنا ملزمين بإقامة رئيس لكم ما دمتم خاضعين لحكمنا.

فقلت: أيها الملك العادل، أين عدالة أحكامكم؟ ومتى صدر قرار مثل هذا من خليفة مثلك؟ فأنتم تعرفون أن بيننا وبينكم عهوداً ووثائق موقعة ومختومة بخاتم

الخلفاء الذين فتحوا المدن. وبناء على ذلك استسلمنا لكم، فإذا نكثتم بتلك العهود، ومنعتم عنا شعائرنا ورئاستنا، تكونون قد ألحقتم الغبن بنا، لأن أمورنا ستضطرب وسننتهي إلى محاربة بعضنا البعض، ولن تغدوا حكامنا.

قلت هذا وأنا أصرخ وأحرك يدي تجاهه كالذي يخاصم زميله من أجل تقسيم الغنيمة، كما رفع هو الآخر صوته كمن يبارز نداً له دون أن يمتعض من الدالة التي أظهرتها نحوه.

ثم سألني عن كيفية إصدار القرار ضد لعازر، فأسمعته القصة من أولها. بعد ذلك أبرز الشكوى التي رفعها الموالون له ضدنا، وأخيراً قال: أيها المسيحيون، إنكم تزعجوننا كثيراً وتؤذوننا، لاسيما أنتم اليعاقبة[1] كما هو واضح من الشكاوى التي تقدمونها إلينا ضد بعضكم البعض، فامض الآن وعد إلي غداً.

لقد تعجب أساقفتنا وجنوده بالدالة التي تحدثت بها إليه بقوة الله، وبطول أناته علي. وبعد عشرة أيام قلنا للعازر المارديني، من حاشية الخليفة، أن يذكره بوعده ففعل. وكان هناك يحيى بن أكثم قاضي قضاتهم[2]، فأمر الخليفة بحضوره في اليوم التالي مع الفقهاء.

---

(1) لا يحبذ السريان أن يطلق عليهم اسم اليعاقبة نسبة ليعقوب البرادعي، لأنهم يعتبرون أنفسهم أصحاب الدين القويم، الأرثوذكس الأصليين، أما يعقوب فهو قديس له مكانة خاصة في الكنيسة السريانية.. وفي التراث السرياني ظهرت تسمية اليعاقبة أثناء الخلاف بين القديس يعقوب البرادعي والبطريرك بولس الأسود أيام الحارث بن جبلة وابنه المنذر.

(2) يحيى بن أكثم بن محمد بن قطن، أبو محمد ، التميمي المروزي ، ثم البغدادي. ولد في خلافة المهدي. كان واسع العلم بالفقه ، كثير الأدب ، حسن العارضة، قائما بكل معضلة. غلب على المأمون ، حتى لم يتقدمه عنده أحد مع براعة المأمون في العلم. وكانت الوزراء لا تبرم شيئا حتى تراجع يحيى. قال الخطيب : ولاه المأمون قضاء بغداد، وهو من ولد أكثم بن صيفي. قال السراج في تاريخه: مات بالربذة منصرفه من الحج يوم الجمعة في ذي الحجة سنة اثنتين وأربعين ومائتين. قال ابن أخته: بلغ ثلاثا وثمانين سنة.(سير أعلام النبلاء للذهبي الطبقة الثالثة عشر).

وفي الصباح دخلت إليه لوحدي ووقف معظم الأساقفة على الباب فرأيته جالساً على أريكته وقد انتظم حوله قضاة بغداد وعلماؤها، فسلمت ودعوت له، فأمر بأن أجلس قبالته، وقال لي: لقد أنحيت علي باللائمة ظلماً أيها البطريرك، بسبب القرار الذي أصدرته بحقكم، لذا جمعت الفقهاء لأتحدث إليك أمامهم.

ثم التفت صوب الشيوخ وقال: ماذا ترون هل يستوجب علينا أن نعين حكاماً من المسيحيين ما دامت الدولة لنا، أم أنهم بحسب القرار الذي أصدرته فيهم وفي اليهود، يتمتعون بالسلام الذي نوفره لهم إذا ما أخلصوا لنا الطاعة والتزموا بالهدوء، ولن يكون من يكرههم على تغيير إيمانهم وتقاليدهم؟

فكان جوابهم لهذا السؤال الموجه إليهم مقترناً بالزيف، إذ قالوا: ترى من مثلك له خبرة في الأحكام، أو من أصدر حكماً أكثر عدلاً من هذا؟

فلم أرد بشيء على قرار المشايخ المزعج هذا، بل قلت للمأمون، لو سمحت فإني أود أن أتحدث عن سر المسيحيين، وبعد أن أذن لي قلت:

عندما أشرق ديننا في العالم بواسطة تعاليم المسيح الذي أنقذنا من عبادة الأوثان، وبعد أن أكمل تدبيره، وقبل أن يصعد إلى السماء، دعا تلاميذه وأوصاهم أن يكرزوا[1] بالإيمان به، فجذب التلاميذ الكثيرين إلى الإيمان بفعل المعجزات، ولما كان الموت أمراً محتماً، سلموا الرسالة إلى الآخرين... قبل انتقالهم وقسموا المسكونة أربعة أقسام، وأقاموا رئيساً على كل قسم دعوه بطريركاً، وجعلوا كراسيهم في مدن كبرى هي، رومية والإسكندرية والقسطنطينية وأنطاكية، وهؤلاء رسموا أساقفة وأقاموا

---

(1) من الكلمة اليونانية (kerysso) أي يعلن أو ينادي.

رئيساً لكل عشرة أساقفة، وخولوا الأساقفة صلاحية رسامة كهنة وشمامسة والرتب الأدنى منها.

ومن هنا فإن سلطة البطريرك تطال الأساقفة والكهنة والشمامسة، ولا يجوز لأي من الذين ينضوون تحت سلطة البطريرك أن يقاومه أو يبطل قراراً أصدره أو يعارضه في ما يفعل، إلا إذا انحرف عن الإيمان.

وفي هذه الحالة يجتمع ثلاثة بطاركة ويحاكمونه. ولا تزال هذه القوانين سارية المفعول حتى اليوم.

ومنذ أيام المسيح وحتى اليوم، لم يغير ملك ما تقاليدنا، لا سيما خلفاء المسلمين، وقد ثبت أباؤك المرحومون الرئاسة لنا، وكانوا يزّودوننا بالفرامين، وأنت نفسك أعطيتني فرماناً في بدء حكمك، لذا، وحيث أنك تلتزم جانب العدالة، آمل أن لا تسنّ لنا قوانين جديدة، لا سيما أنه لم يقم خليفة أكثر حكمة ومنطقاً وكبر نفس منك.

أما بخصوص الشكوى التي قدمها ضدي ذلك الأسقف المعزول، فليعلم الخليفة أن بعض الأشرار من المسيحيين الذين يُعزلون، اعتادوا على إقامة شكوى ضدنا، ولأنهم يعلمون أن لا سند لهم من جهة القوانين الكنسية، فهم يلتجئون إليكم واشين بنا أمامكم متهمين إيانا بأننا أعداء المسلمين، أو أننا نشتم نبيكم وسواها من الأمور الخبيثة التي عاقبتها الموت.

ثم رويت له قصة داود أسقف دارا مع البطريرك جاورجي، وقصة الجبيين وأبيرام مع البطريرك قرياقس، وختمت حديثي بالطلب إليه أن يرفض الشكوى المقدمة ضدنا، فأجاب: لقد سمعنا عن معاملة الأسلاف لكم، ونحن أيضاً نعاملكم بما يليق، لكن لماذا تتمسكون أنتم معشر المسيحيين بهذا الأمر أكثر من سائر الأديان؟

قلت: إن أولئك هم الآخرون قلقون وهم يتوقعون من زيارتي لكم أن يشملهم التخلص من هذا القرار. لكن رئاستنا تختلف عما هي لدى المجوس واليهود. فهؤلاء يسمون رؤساءهم ملوكاً ويتسلمون الرئاسة بالوراثة، ويؤدون لملوكهم معظم الواجبات كالضريبة التي لا وجود لها عندنا.

فهناك ثلاثة أنواع من الرئاسة في هذه الحياة، طبيعية وجبرية وإرادية، فالطبيعية كرئاسة الأب على الأولاد، ورئاسة الرجل على المرأة، وفيها يتساوى جميع البشر، أما الجبرية، فإما أن تعطى من الله، أو تأتي نتيجة الخوف من السيف كما هو شأن ممالك العالم.

إن رئاستكم هي أصيلة، أما رئاسة الذين هم تحت نفوذكم ويجبون الضرائب والرسوم ليقدموها لكم فهي استعارية، لأن دأبهم هو جمع المال للذي له الرئاسة العليا.

أما الرئاسة عندنا فتأتي نتيجة الانتخاب واتفاق آراء الشعب، ونحن ننظر إليها ككهنوت لا كرئاسة مدنية. ومثلما أن الإمام يؤم المصلين عندكم ويعظ ويوجه إلى عمل الصلاح، هكذا يؤم البطريرك والأساقفة عندنا، المصلين ويحثونهم على التمسك بالشريعة، ويصدرون عقاباً بحق المذنبين، لكن ليس بإقامة الحدود كما تفعلون، بل بالتجريد من الرتبة، سواء أكان المذنب أسقفاً أم كاهناً، وإذا كان علمانياً يُبسل من الكنيسة.

فنحن إذن لسنا كسائر الشعوب الأخرى أيها الخليفة، وأن الخسارة التي تلحق بنا من جراء إلغاء رئاستنا، لا تتمثل بالمادة، بل تمس عقيدتنا وتبعدنا عن الله.

نحن لا نفكر أن نشارككم الرئاسة، وكل ما يهمنا هو أن لا تهان شريعتنا بإعطاء الرئاسة لكل من يرغب وفي أي ظرف كان.

حينئذ قال: نحن لا نمنعكم من تجريد من يقاومكم من رتبته، أما أن تطردوا شخصاً من الكنيسة أو تمنعوه من الصلاة، فهذا ما لا نسمح لكم به. ثم أوعز إلى كاتبه أن يتلو كتاب قاضي الموصل. ولما همّ بالقراءة، التفت إلي الخليفة وقال: إصغِ أيها البطريرك وانظر كم نحتمل منكم.

فلما تليت لاحظت أنه يخص بالمسيحيين فلم أتحمل فقلت: حفظك الله أيها الخليفة، إن أبناء الموصل واقفون على بابك منذ عدة أيام منتظرين أن يقدموا شكوى ضد قاضيهم الذي بالغ في ظلمهم، فهلاّ أمرت بدخولهم واستمعت إلى شكواهم؟ فقال: هل بإمكانك أن تتحدث باسمهم؟

قلت: يدعي المواصلة أنهم سلموا مدينتهم للمسلمين طوعاً، وقد تعهد فاتحها بعدم هدم أية كنيسة أو إبطال شريعتهم. غير أن هذا القاضي هدم كنيستهم الكبرى وألغى شريعتهم.

فأوعز الخليفة إلى يحيى بن أكثم قاضي القضاة أن يستمع إلى المواصلة حول فتح مدينتهم، فإذا كانوا قد سلموها فعلاً، لهم أن يتمتعوا بالتعهد الذي أعطاهم فاتحها.

أما من جهتنا فقال: إننا لا نتدخل بينكم، ولك إذا تمرد عليك أحد الأساقفة الذي تحت سيطرتك وثارت فتنة بسببه، فنأمر أن تبقى أوقاف كنيسته تحت توليتكم ولا يحق له إدارة شؤون كنيسته باستثناء الصلاة فيها.

ثم قال للقاضي إسحاق[1]، انظر إذا ثبت أن لعازر هو تحت سيطرة البطريرك، نفذ فيه أمرنا، وامنعه وأتباعه من إثارة الشغب.

وهكذا غادرناه ولم يكن لي من سند سوى الروح القدس الذي وعد بإرشاد الذين يجاهدون من أجل المسيح. حقاً أنه لمن الصعب عليه أن يسلم، وهو ملك، بأنه قد غلب. لكننا فهمنا بعد مغادرتنا أنه ارتاح لحديثنا معه. فقد قال الفقهاء للشعب المجتمع خارجاً: لقد كان حديث رئيسكم رائعاً وقد امتدحنا شجاعته، فعليكم أن تتمسكوا به وتحترموه لأننا لم نرَ مسيحياً بقوة الإقناع مثله. تم هذا الحديث في آذار 1140 [829م].

التوجه إلى تكريت

في تشرين 1141 [830م] غادرنا بغداد إلى تكريت نزولاً عند إلحاح الشعب بغية إنقاذهم من باسيل الذي قدموا ضده شكاوى عدة، والذي كان يزعجهم برسائله حتى بعد أن طرده المسلمون، ويحثهم على كراهية بعضهم البعض، ولنا.

ولما عزمنا على عقد اجتماع بخصوصه في الموصل أو بلد[2]، سمعنا أنه مريض في دير خارج بلد يدعى دير...[1]، فأوفدنا إليه ثلاثة أساقفة فوجدوه مصاباً بداء

---

(1) إسحاق بن إبراهيم بن مصعب الخزاعي. قال ابن العماد في شذرات الذهب 2 \ 84 عن وفيات سنة 235، وفيها الأمير إسحاق بن إبراهيم بن مصعب الخزاعي ابن عم (الصواب : ابن أخي) طاهر بن الحسين، ولي بغداد أكثر من عشرين سنة، وكان يسمى صاحب الجسر، وكان صارماً سياساً حازماً، وهو الذي كان يطلب العلماء ويمتحنهم بأمر المأمون، مات في آخر السنة.

(2) تبعد مدينة بلد حوالي 85 كم شمال مدينة بغداد، تقع على خط عرض 34 بين قضاء سامراء شمالاً وقضاء الدجيل جنوباً وتمتد حدودها من حدود محافظة ديالى عند ناحية الحاتمية التابعة لقضاء بلد، وحتى الحدود الشمالية لناحية الإسحاقي، وتمتد باتجاه الغرب فتحدها الجزيرة التي تمتد في محافظة صلاح الدين ومحافظة الأنبار، أما من جهة الشمال الشرقي فيحدها أجزاء أخرى من محافظة ديالى ونهر العظيم.

الآكلة وقد تشوه وجهه ونتن وانتزع لحم لثته، ولم يستطيعوا الدنو منه لكراهة رائحته. فأجاب بتلعثم من وراء الثوب الذي وضع على وجهه، اذهبوا وقولوا للأساقفة أنا على خير ما يرام وعما قليل سآتي إليكم.

ولما حاولوا رؤية وجهه لم يسمح لهم، فعادوا وقصوا الخبر علينا، فاستغربنا من موقفه، كيف أنه لم يتنازل عن كبريائه وهو على شفير الموت وليستسلم ليد الله الضابط الكل، غير أنه توفي بعد يوم واحد، فقمنا بدفنه، ففرح خصومه كثيراً، لا سيما المشرقيون الذين تحرروا من النزاع الذي أثاره بينهم، كما خلفت وفاته جواً من السلام، حيث كنا في حيرة من الأمر، لئلا ينشق المشارقة عنا بفعل فساده، فاستدعينا دانيال: من دير بيقوم ورسمناه مطراناً لتكريت، وغادرنا إلى سوريا في كانون الأول سنة 1141 [830م].

(1) اسم الدير غير مقروء في المخطوطة الأصلية.

الرحلة الثانية إلى مصر

في سنة 1142 [831م]، توفي يعقوب بابا الإسكندرية، وخلفه مار سمعان ولكنه توفي هو أيضاً بعد ستة أشهر فقط، وخلفه يوسف، وفي أيار من السنة عينها تحرك المأمون من دمشق باتجاه قلعة كيسوم، وهناك لقيناه، ولما علم المأمون أن المصريين تمردوا، عاد إلى دمشق، ولما لم نكن قد تلقينا منه أمراً بالبقاء في كيسوم، ولم نقدم له الهدايا التي كنا نحملها إليه، اضطررنا إلى الرحيل إلى دمشق. وهناك قبلت هدايانا بواسطة لعازر الماrديني الرئيس الكريم.

وأرسل المأمون يقول لنا: «ابق في دمشق، لأننا نريد أن ترافقنا إلى مصر، لكي تذهب سفيراً إلى البياميين في مصر السفلى، وتوصيهم بالعدول عن التمرد الذي بدا منهم».

وكان المأمون قد أرسل الأفشين[1] إليهم لإحلال السلام.. ولكن الأفشين ألزم جنوده بأن يجمعوا أرزاق الجيش من قراهم. وصادف أن رأى بعض الجنود امرأة فحاولوا اغتصابها فصرخت، وسمع الذين في الجزيرة صراخها فاندفعوا نحوها وقاتلوا، فقتل منهم وقتلوا. فتعكر بذلك صفو الأمن ثم تلاشى كلياً.

(1) الأفشين حيدر بن كاوس، تركي الأصل يدعى عادة بالأفشين وهو لقب أجداده أمراء (أشروسنة) من بلاد ما وراء النهر، كان من كبار القادة في عهد المأمون والمعتصم.

سير الرحلة

ولما رحلنا من دمشق وبلغنا المدينة المصرية الأولى التي تدعى الفرما[1] في شهر شباط، استدعاني الخليفة المأمون بواسطة الفضل[2] المشرف على شؤون المملكة. ولما دخلت عليه صافحني كالعادة وقال: لقد سمعت أيها البطريرك بتمرد المسيحيين الأقباط المعروفين باسم البياميين[3] الذين لم يتعظوا بما جرى لهم في الحرب الأولى[1]،

---

(1) من الواضح أن البطريرك والخليفة سلكا طريق البر الذي حدده ابن خرداذبة في كتابه المسالك والممالك كما يلي: الطريق من دمشق إلى طبريَّة، من دمشق إلى الكسوة اثنا عشر ميلاً ثم إلى جاسم أربعة وعشرون ميلاً ثم إلى فيق أربعة وعشرون ميلا، ثم إلى طبرية مدينة الأردن ستة أميال. ومن طبرية إلى اللّجّون عشرون ميلاً ثم إلى قلنسوة عشرون ميلاً ثم إلى الرّملَة مدينة فلسطين أربعة وعشرون ميلاً. ومن الرملة إلى أزدود اثنا عشر ميلاً، ثم إلى غزّة عشرون ميلاً، ثم الى رفح ستّة عشر ميلاً، ثم إلى العريش أربعة وعشرون ميلاً في رمل، ثم إلى الورّادة ثمانية عشر ميلاً، ثم إلى الثعامة ثمانية عشر ميلاً، ثم إلى العذيب في رمل عشرون ميلاً، ثم إلى الفرما أربعة وعشرون ميلاً.

ويبدو أن المأمون قال هذا البيت عندما نزل في الفرما:

للبيلك كان بالميدان أقصر منه بالفرما ... غريب في قرى مصر يقاسي الهمّ والنّدما

ثم إلى جرجير ثلاثون ميلا، ثم إلى الغاضرة أربعة وعشرون ميلاً، ثم إلى مسجد قضاعة ثمانية عشر ميلاً، ثم إلى بلبيس إحدى وعشرون ميلاً، ثم إلى الفسطاط مدينة مصر أربعة وعشرون ميلاً.

أما الفرما فقد وصفها الحسن بن أحمد المهلبي في الكتاب العزيزي بعد قرن ونصف القرن كما يلي: الفَرَمَا: حصن على ضفّة البحر لطيفٌ لكنه فاسدُ الهواء وَخِمُهُ، لأنه من كل جهة حوله سباخٌ تتوحّل فلا تكاد تنْضُب صيفاً ولا شتاء، وليس بها زرع ولا ماء يُشرب إلا ماء المطر فإنه يخزّن في الجباب، ويخزنون أيضاً ماء النيل يُحمل إليهم في المراكب من تنّيس، وبظاهرها في الرمل ماء يقال له العُذَيب ومياه غيره في آبار بعيدة الرشاء وملحة تنزل عليها القوافل والعساكر، وأهلها نحافُ الأجسام متغيّرو الألوان، وهم من القبط وبعضهم من العرب من بني جَرَى وسائر جُذَام، وأكثر متاجرهم في النوَى والشعير والعَلَف لكثرة اجتياز القوافل بهم، ولهم بظاهر مدينتهم نخل كثير له رُطَبٌ فائقٌ وتمرٌ حسنٌ يجهّز إلى كل بلد.

(2) أبو العباس السرخسي الفضل بن سهل بن زاذا نفروخ الملقب بذي الرياستين سليل ملوك المجوس، أخو الحسن بن سهل، من قرية من السيب الأعلى تُعرف بصابرنيتا قرب سرخس، وهذه إشارة غريبة إلى أن الفضل بن سهل وزير الخليفة المأمون كان حياً عام 831م، علماً أن مصادر التأريخ العربي تشير إلى أن مقتله كان في عام 818م، فإما أن يكون الفضل هذا شخص آخر، أو أنه أخطأ باسمه وهو يقصد الحسن بن سهل شقيقه الذي تسلم الوزارة وديوان الخراج بعده.

(3) البياميون هم سكان الوجه البحري من مصر أو مصر السفلى، والتسمية سريانية آرامية على الأرجح تتكون من مقطعين الباء كناية عن مكان ويام بحر أي البحري أو ابن البحر. ويمكن أن تكون التسمية مصرية

ولولا أني رحيم ولا رغبة لي في القتل، لما أرسلتك إليهم، لكن اصطحب الأساقفة الذين معك وجماعة من المصريين، وسافر إلى المتمردين وأعطهم تعهداً بالأمان، وليحضروا مع قواتهم إلى المكان الذي اختاره لإقامتهم، وإن لم يذعنوا أهلكتهم بحد السيف. فاستعطفته أن يبقيهم في منطقتهم فرفض، مصمماً على أحد الأمرين، إما ترك بلدهم أو القتل. وأمر أن يرافقني بطريرك مصر، فسافرنا بطريق النهر، وبعد ثمانية أيام التحق بنا البطريرك يوسف.

فنزلنا إلى إقليم بشروط[2] حيث يقيمون فوجدناهم مجتمعين في إحدى الجزر المحاطة بالقصب والبردي. فجاء إلينا رؤسائهم فلمناهم على تمردهم وعلى ما ارتكبوه من أعمال القتل، فاشتكوا من الحاكم.

ولما أطلعناهم على قرار مغادرتهم بلدهم اغتاظوا وطلبوا إلينا أن نستأذن الخليفة ليقابلهم فيطلعوه على ما يحتملونه من حاكمهم أبي الوزير[3] الذي ضاعف عليهم الجزية، وكان يسجنهم في الليل فتأتي نساؤهم لهم بالطعام، فيهجم عليهن الجند وينجسونهن. كما كان يفكر بقتل الكثيرين منهم حتى إبادتهم جميعاً لئلا يشكوه لدى الخليفة.

ولما أخبرنا القائد أفشين برفض المتمردين الاستسلام، استطرد قائلاً: إذن فالسلام غير وارد، فاذهبا وقولا للخليفة أن لا مكان للسلام. وباشر يحاربهم، فأضرم النار في القرى والكروم والبساتين والكنائس في أرجاء الإقليم كلها.

قديمة لأن يام أيضاً تعني البحر باللغة المصرية القديمة التي تسمى اصطلاحاً الفرعونية. وما يزال اسم بيومي شائعاً في مصر حتى اليوم.

(1) يبدو أ المقصود هنا الحرب التي شنها الأفشين على الثوار البشروطيين.

(2) البشروط أو البشرود أو البشمور هو إقليم يقع بين فرعي دمياط والرشيد في الدلتا.

(3) أبو الوزير أحمد بن خالد متولي الخراج في أكثر من مكان في خلافة المأمون والمعتصم والمتوكل.

أما البياميون فكانوا يطعنون الفرس ويرمونهم بالسهام والحراب من بين القصب، واستقدموا جيرانهم وحرضوهم ضدهم فقتلوا وقُتلوا.

لقاء المأمون

ولدى مقابلتنا الخليفة أطلعته على كل الأمور، بما في ذلك الظلم الذي ألحقه أبو الوزير بالأقباط والذي سببه عدم تحقيق السلام، وكيف أن أبناء المنطقة يشتكون منه ومن اثنين آخرين. وكان يصغي إلي بارتياح، وإني لم أقع تحت تأثير غيرتي.

وقد تجرأت ونصحته واستشهدت الله عليه مذكراً إياه بالحساب الذي سيقدمه لربه عن الرعية المؤتمن عليها، مستشهداً بقول النبي بالحق تكلمت أمام الملوك ولم أخجل.

فقال: إن هؤلاء العمال لا يتصرفون بحسب إرادتي، وأنا لا أحبذ أن أثقل على الناس، لا بل إني أشفق على أعدائي الروم، فكيف لا أشفق على رعيتي؟ وبإذن الله سأصحح كل شيء.

لقاء أبي إسحاق المعتصم

وفي اليوم التالي دعاني كاتبه، وهو الذي حقق في موضوع هؤلاء المظلومين، لكي أقص عليه ظلم عمال مصر لينقل الخبر مجدداً للخليفة وأبي إسحاق [المعتصم] المسؤول عن هؤلاء العمال.

ومن جهتي، كنت دائماً أحذر أبا إسحاق لكونه إنساناً لا يعرف الرحمة، لكني عدت وقلت له: علينا أن نخشى الله لا الإنسان. ثم رويت له القصة من أولها مضيفاً ما كنت قد سهوت عنه أمام الخليفة.

العودة إلى دمشق

بعد ذلك إذن لي الخليفة بالذهاب إلى دمشق. وبعد رحيلنا استدعى المأمون زعماء المتمردين وأمرهم بمغادرة تلك المنطقة، فأطلعوه على سوء المعاملة التي لاقوها، ويخشون، إذا غادروا، أن لا يجدوا مورداً لمعيشتهم لأنهم يعتمدون على القصب وصيد الأسماك، غير أنهم أذعنوا له أخيراً وغادروا بالسفن إلى أنطاكية ومنها إلى بغداد، وكان عددهم نحو ثلاثة آلاف وقد مات كثير منهم في الطريق، واستعبد الأسرى منهم، وعددهم نحو خمسمائة نفس، للمسلمين الذين أخذوهم إلى دمشق وباعوهم هناك، الأمر الذي لم يجر من قبل في بلاد المسلمين، أي بيع من يخضع للجزية.

غير أننا وبعون الله، شجعنا المؤمنين على افتكاكهم وبذلك تحرروا، لكنهم لم يعودوا إلى بلادهم بسبب المجاعة المنتشرة هناك، حيث هاجر الكثيرون منهم إلى سوريا ليشبعوا خبزاً.

وأصدر الخليفة أمراً إلى عماله بعدم الإساءة إلى المصريين أو قتلهم، كما خفض الضرائب عنهم إلى النصف.

ولكن بعد مغادرة الخليفة مصر، كثرت المضايقات على المصريين، فكان الفرس يدخلون القرى ويوثقون الناس بشكل مجاميع، تضم كل مجموعة عشرة أو عشرين شخصاً ويرسلونهم إلى الفسطاط دون التأكد من ذنبهم أو براءتهم، وقُضي على الكثيرين من دون ذنب.

وقد حدثت قصص غريبة إذ عرض الذين ربطوا وسيقوا للقتل، رشوة على الذين يقودونهم مقابل إطلاقهم، فقالوا لهم: لقد تم تسليمكم لنا بالعدد، فتريثوا ريثما نأسر من نصادفهم في الطريق ونطلقكم. فلاقاهم ثلاثة رجال، قسّ ومسلمان، كان أحدهما إماماً للمسجد، فقبض عليهم بدلاً عمّن دفع الرشوة، وإذ لم يفسح لهم المجال أن يتكلموا، قتلوا، وهكذا كانت جثث القتلى الأبرياء تملأ الطرق[1].

وفي هذه الفترة، انتشرت في مصر الحروب والسبي والجوع والأوبئة.

(1) الغريب أن كل هذه الأحداث التي يسترسل البطريرك التلمحري بروايتها لا تأخذ من المؤرخ الطبري أكثر من هذه الكلمات: ثم دخلت سنة سبع عشرة ومائتين.. ظفر الأفشين فيها بالبيما وهي من أرض مصر ونزل أهلها بأمان على حكم المأمون، قرئ كتاب فتحها لليلة بقيت من شهر ربيع الآخر. أما اليعقوبي فيسترسل أكثر إذ يقول: وخرج المأمون متوجها إلى أرض الروم في المحرم سنة 215، فغزا الصائفة، وافتتح أنقرة نصفا بالصلح ونصفا بالسيف، وأخربها، وهرب منويل البطريق منها، وفتح حصن شمال، ثم انصرف، فنزل دمشق ثم أتاه الخبر أن أهل البشرود من كور مصر قد ثاروا، فأمر أخاه أبا إسحاق أن يوجه الأفشين حيدر ابن كاوس، فوجه به وكف عاديتهم، ونفذ إلى برقة، وقد خالف أهلها فافتتحها، وأسر مسلم بن نصر بن الأعور، وانصرف إلى مصر سنة 216، وقد عاود أهل الحوف وأهل البشرود المعصية، فحاربهم.
واشتدت شوكة من كان يحارب الأفشين بمصر من أهل الحوف والبيما والبشرود، وهي من كور أسفل الأرض، فخرج المأمون إلى كور مصر، وقدم الأفشين في محاربة أهل الحوف، فزحف إليهم بنفسه، فقتلهم وسبى البيما، وهم قبط البشرود، واستفتى في ذلك فقيها بمصر يقال له الحارث بن مسكين مالكي، فقال: إن كانوا خرجوا لظلم نالهم، فلا تحل دماؤهم وأموالهم، فقال المأمون: أنت تيس ومالك أتيس منك، هؤلاء كفار لهم ذمة، إذا ظلموا تظلموا إلى الإمام، وليس لهم أن يستنصروا با... ولا يسفكوا دماء المسلمين في ديارهم. وأخرج المأمون رؤساءهم، فحملهم إلى بغداد.

وفيما يلي أدون مشاهداتي في مصر، أملاً أن لا تسبب خيبة أمل للسامعين، بل تحذيراً لهم.

عادات كنيسة الإسكندرية

إن ما سنرويه يجب ألا يكون لنا دافعاً إلى الخمول بل إلى اليقظة والخوف، فقد ألفينا البار البابا مار يوسف وأساقفته شعباً عفيفاً ومتواضعاً وغنيا بمحبة الله. وقد عظم شأننا في أعينهم إلى حد أنهم، طيلة إقامتنا عندهم، أعطونا كل الأولوية في الشرف الذي كان يحق للبابا في بلاده، روحياً كان أم جسدياً.

ولكننا لاحظنا فيهم عادات لا تناسب فضيلتهم ولا فضيلة كيرلس وديوسقوروس وطميثاوس الذين تسير الكنيسة حسب القوانين التي سنوها.

أولاً، لقد ألغيت عندهم قراءة الكتب المقدسة، ورهبانهم بنوع خاص خالون من هذه النعمة، فإن الرصينين فيهم يعكفون على العمل اليدوي وعلى التلاوة المستمرة للمزامير خلال أعمالهم، أما الآخرون، الذين يأملون في الرئاسة، فإنهم لا يهتمون بالمعرفة والحكمة، بل في تحضير الذهب، كمادة تدفع عن الموهبة التي هم مزمعون أن ينالوها، وكأن المرء لا يستطيع أن يبلغ رئاسة الكهنوت بدون مائتين أو ثلاثمائة دينار أحمر. ولا يمكن لمن ينقصه المال أن يدنو من هذه الدرجة مهما كان ساميا.

ولما عاتبناهم، كان جواب البابا إلينا بأننا اضطررنا إلى هذا التصرف لأن كنيسة الإسكندرية غارقة في الديون. ولما أجبناه بأن هذا الأمر يستحق الحرم، أجاب: ولو أن اقتضاء شيء من الرسامة ذميم، ولكننا نقول أولا لمن يقدم على الرسامة بان يفتدي شيئاً من الأمور الكنسية المرهونة، وبعدئذ يقترب من الرسامة، فضحكت

عوضاً عن البكاء، وقلت لسذاجتهم ما قاله المسيح لتلاميذه عندما قالوا يوجد عندنا سيفان أجاب: إنهما يكفيان.

ومن عاداتهم، عدم تعميد الذكر قبل إكماله أربعين يوماً، والأنثى ثلاثين، فكان العديد من الأطفال يموتون بلا عماد. كما كانوا يخالفون القوانين في عدة قضايا أخرى، فكتبنا بعض الملاحظات وأعطيناها إياهم.

آثار الفراعنة

شاهدنا الكنوز التي ذكرها إرميا[1] في مدينة هليوبوليس[2] عاصمة المصريين التي كان فوطيفار حمو يوسف حبرها[3]، وفيها أعمدة ضخمة طول كل منها أكثر من 60 ذراعاً ومحيطها ستة أذرع، مركبة على قواعد بعرض عشرة أذرع لكي يبلغ ارتفاعها 70 ذراعاً، وقد نقشت صورة آلهة الوثنيين وكتابات حبرية على طول العمود، لم يفلح أحد في قراءتها.

إنه لمشهد مدهش. فإنها لم تصنع من حجارة رخوة بل من المرمر المتين. وما يشبه هذه، تلك التي في بعلبك وهي إحدى عجائب الدنيا السبع كما يقال، ولئن

---

(1) إرميا أحد أنبياء بنو إسرائيل وينسب إليه سفر إرميا، ويفترض أنه عاش نحو 650 إلى 585 ق.م تنبأ بسقوط أورشليم وذكر مدينة الشمس باسم بيت شمشي (43: 13).

(2) هليوبوليس باليونانية أي مدينة الشمس، شرق القاهرة، سماها العرب عين شمس.

(3) جاء في سفر التكوين اسم مدينة أون أكثر من مرة (41: 45 و50، 46: 20) فقد كانت أسنات التي أعطاها فرعون زوجة ليوسف، ابنه فوطي فارع كاهن أون، كما وردت في الترجمة السبعينية في سفر الخروج (1: 11) ويحتمل أن تكون أون هي مدينة الشمس (أرهاهيرس بالعبرية) المذكورة في إشعياء (19: 18). وهو غير فوطيفار الآخر رئيس شرطة فرعون وسيد يوسف في مصر (تك 37: 36 و 39: 1). والذي رفّعه وجعله وكيلاً على بيته (تك 39: 4). إلا أن زوجته حاولت إغراءه وإضلاله عن طريق الفضيلة. ولما فشلت محاولتها حملت زوجها على سجنه بتهمة كانت تعلم أن يوسف كان بريئًا منها (تك 39: 1-20). (راجع قاموس الكتاب المقدس)

كانت عجيبة، غير أن طول واحدها 40 ذراعاً، أما تلك التي في مصر فأكثر من 60 ذراعاً.

إن العقل يتيه عندما يفكر في كيفية قلعها، وطريقة نقلها إلى تلك المناطق. ترى بأية مهارة استطاعوا نصبها فوق القواعد؟ فلو اجتمع نحو ألف رجل لما استطاعوا زحزحتها من الأرض بمقدار إصبع واحدة. وكان على قمتها تيجان نحاسية بيضاء تشبه الخوذة التي يضعها الجندي على رأسه في أثناء الحرب، تزن كل منها أكثر من ألف رطل، وبالرغم من أن المدينة خربت منذ ميلاد المسيح، ما كان بمقدور أحد الصعود عليها لجلب النحاس، لا من المصريين ولا من العرب الطموحين، كما فعل المسلمون بالتمثال الذي كان في جزيرة رودس، الذي حطموه وأخذوا منه ثلاثة آلاف حمل نحاس[1].

وإذا ما تساءل أحد، كيف إذن تنبأ إرميا بأن المسيح سيكسر أنصاب بيت شمشي، وهاهي ذي لا تنكسر؟ نجيب: ليعلم، أن المسيح قد أبطل وحطم عبادتها كآلهة، وترك هذه الأعمدة كعلامة للأجيال اللاحقة لكي يدرك المسيحيون مدى سيطرة إبليس على الناس حتى أن عبيده يهتمون به بهذا المقدار.

وكان في تلك المدينة أكثر من خمسمائة تمثال مشوهة الصور نصبت في شوارع المدينة وخارج أبوابها، وقد شغل كل منها مساحة 40 ذراعاً. وعلمنا أنها كانت المركز الديني لوثنيي كافة المناطق.

---

(1) تشير المصادر الإغريقية إلى أن هذا التمثال البرونزي بني عام 280 ق. م وسقط عام 227 ق. م نتيجة زلزال مدمر. وكان يمثل الإله الإغريقي أبولو أو هيليوس إله الشمس بحسب بعض المصادر، ويبدو أن المسلمين قد وجدوا قطع هذا التمثال مبعثرة في المكان فنقلوها معهم ولم يقوموا هم بتدميره.

الأهرامات

وشاهدنا كذلك في مصر الأهرام التي ذكرها الثاولوغوس[1] في كتاباته، وهي ليست مخازن يوسف كما ذهب بعضهم، لكنها مقابر عجيبة شيدت فوق مدافن الملوك القدماء، وهي مسطحة ومملوءة وليست مجوفة أو فارغة من الداخل، خالية من الأبواب. ورأينا إلى جانب أحدها ثغرة يبلغ عمقها نحو 50 ذراعاً، صفت جدرانها بالحجر الذي حطمه الناس فيما بعد ليروا فيها إذا كانت مجوفة أم لا؟[2].

تبلغ مساحة كل من الأهرام خمسمائة ذراع طولاً وخمسمائة عرضاً و250 ارتفاعاً. ودعيت أهرام لأنها مسطحة. وفيما أن قاعدتها خمسمائة ذراع فإن قمتها هي ذراع واحد، ويتراوح حجم كل حجر من حجارتها من خمسة إلى عشرة أذرع، تظهر من بعيد وكأنها جبال ضخمة.

أبو الهول

وشاهدنا إلى جانبها صخرة كالجبل أو كتلّ مستدير وقد نحتت وصنع منها تمثال لعبادة ملوكهم [أبو الهول]، كما شاهدنا بيتاً مشيداً على نهر النيل قبل أن يتشعب إلى أربعة روافد، يشبه صهريجاً مربعاً يتوسطه عمود من حجر، نقشت عليه درجات

---

(1) يطلق لقب الثاولوغوس على يوحنا البشير صاحب الإنجيل أحد تلاميذ السيد المسيح، وتترجم الثاولوغوس إلى العربية بعبارة اللاهوتي أي الناطق بالإلهيات.

(2) هذه الرواية تدحض الخرافة التي تزعم أن الخليفة المأمون هو الذي حاول فتح الأهرام بحثاً عن الذهب، وقد تداولها مؤرخو العصر المملوكي في مصر، وهي منقولة عن كتاب ألف ليلة وليلة، إذ فيه قصة حول هدم الخليفة المأمون للأهرام. فالبطريرك يتحدث عن حفرة موجودة في الهرم عند زيارته ولا يشير إلى علاقة للمأمون بذلك. ولعل هذا تأكيد لرواية المسعودي في كتابه(مروج الذهب) الذي أكد أنّ هارون الرّشيد والد المأمون لما دخل مصر، ورأى الأهرام أحبّ أن يهدم بعضها ليعلم ما فيه، فقيل له إنّك لا تقدر على ذلك، فقال لا بدّ من فتح شيء منه، ففتحت الثّلمة المفتوحة.

لقياس مياه النهر لدى فيضانه خلال أيلول. حيث تدخل المياه إلى هذا البيت، فيعرف المسؤولون مدى ارتفاع منسوب المياه يومياً.

فإذا انخفض منسوب المياه إلى أكثر من 14 درجة وهي درجة معدل الفيضان، فإن بقعة صغيرة فقط تروى من أرض مصر، فلا تأتي بالمحصول المطلوب في تلك السنة، ولا تجمع الضرائب. وإذا ارتفع منسوب المياه إلى 15 أو 16 درجة يكون المحصول معتدلاً وكذلك تكون الضرائب. وإذا ارتفع منسوب المياه إلى 17 أو 18 درجة، فإن أرض مصر تروى برمتها وتجمع الضرائب كاملة. أما إذا ارتفعت المياه إلى 20 درجة، فإن الفيضان يتلف كل المحصول في تلك السنة. وخلاصة القول: فإن المسؤولين يستطيعون أن يعرفوا من مقياس ذلك العمود، مبلغ الضرائب التي تجمع من مصر سنوياً.

حكام دمشق

في هذه الأثناء كان في دمشق حاكمان، الأول مسؤول عن جمع الضرائب ومتطلبات البلد ويدعى رجاء[1] والآخر واسمه علي[2]، مسؤول عن القتال وحماية المناطق من العابثين.

ورفع رجاء شكوى ضد علي إلى الخليفة فخوله السلطة على المنطقة بأسرها، وإذ علم علي، كتب رسالة عن لسان الخليفة يعتبره الحاكم المطلق على المنطقة، فاستدعى رجاء وذبحه وأولاده واستولى على ممتلكاتهم الخاصة التي بلغت ثلاثين ألفاً، مع

(1) رجاء بن أيوب الحضاري يرد ذكره عند الطبري، تجعل كتب التاريخ العربي ولايته على دمشق بين عامي 841 و847م.

(2) علي بن إسحاق بن يحيى بن معاذ، صاحب المونة، تجعل كتب التاريخ العربي ولايته على دمشق بين عامي 840 و841م.

أربعين ألف أخرى هي ضرائب الخليفة، وذهب وفضة وثياب وأشياء أخرى، وفيما أخذ علي يفتك بالناس، وصل عمال آخرون وكبلوه بالسلاسل. وفيما كانت المدينة واقفة على شفير الهلاك، جاء عون الله، حين طلب الخليفة أن يرسل إليه علي، فتظاهر بالجنون وكأن روحاً شريراً قد دخله، وبذلك نجا من الموت.

وفاة المأمون

لقد استولى المأمون على عدة قلاع رومية سلماً وبعطايا سخية جداً. وفي أيلول عاد ليشتي في كيسوم، وأمر بهدم سور قورس وقنسرين وكافة الحصون المتواجدة في سوريا وبين النهرين. وأقام المأمون في سلعوس[1] من بداية سنة 1144 [833م] لغاية آذار. وكبّد الناس ضيقات كثيرة بجمعه الغلال والتبن بكثرة حتى أن معظمها تلف بسبب تزايد المطر والثلج.

ثم أخذ المأمون يجمع قطعاناً من الجمال استعداداً لدخول بلاد الروم مرة أخرى، فلعنه الناس لضغطه الشديد عليهم، وأمر ابنه العباس أن يضمن دفع الجزية من عامليه، ومن ضاعف الجزية يمنح حرية التصرف كما يشاء. وفي أيار دخل المأمون بلاد الروم وجمع أصحاب المهن لإعادة بناء مدينة طاونا[2] التي كان المسلمون قد دمروها. ومرض المأمون ومات في تموز سنة 1144 [833م][3].

---

(1) جاء في العباب الزاخر للصاغاني أن سَلَغُوْسُ مثال طَرَسُوْس وقَرَبُوْس: بلدة وراء طَرَسوس غزاها المأمون.

(2) ترد في المصادر العربية بصيغة طوانة قريبة من المصيصة غربي تركيا الحالية. ذكر البلاذري في فتوح البلدان أن مسلمة بن عبد الملك فتحها في ذي الحجة من سنة 88 للهجرة.

(3) حسب المصادر العربية الإسلامية توفي المأمون في 6 صفر 218 هـ، والذي يصادف 3 آذار 833م.

خلافة أبي إسحاق المعتصم

على إثر وفاة المأمون في بلاد الروم، حدثت بلبلة بين المسلمين استمرت ثلاثة أيام، لأن البعض أرادوا أن يملك العباس بن المأمون، وآخرون أبو إسحاق. وفيما هم مجتمعون أُزيح ستار الباب وخرج العباس وقال: إن الخلافة هي لأبي إسحاق، فصلوا من أجل حفظه، فعمت الدهشة المعسكر. وأحرقوا الأبنية والغلات وكل أسباب المعيشة وهربوا[1].

أما أبو إسحاق فخاف أن ينزل إلى بغداد لتسلم ملك آبائه لئلا يُرفض لكونه حصل على الخلافة بالقوة لا بالاتفاق.

فلما وصل أبو إسحاق الذي لقب بالمعتصم إلى بغداد في تشرين، استقبلوه مرحبين به، رغم أنهم لم يرضوا به، تحسباً لقسوته. وبعد أن تثبت في الملك، باشر بإنشاء مبان جميلة لإقامته، وفتح قنوات للمياه، وغرس حدائق للتنزه، وأرسل قواته لمحاربة الزطيين[2] الذين يعيشون في وسط المياه التي يصب فيها دجلة والفرات

---

(1) جاء في تاريخ الطبري عن خلافة المعتصم ما يلي: بويع لأبي إسحاق محمد بن هارون الرشيد بن محمد المهدي ابن عبد الله المنصور بالخلافة وذلك يوم الخميس لاثنتي عشرة ليلة بقيت من رجب سنة 218 وذكر أن الناس كانوا قد أشفقوا من منازعة العباس ابن المأمون له في الخلافة فسلموا من ذلك. وذكر أن الجند شغبوا لما بويع لأبي إسحاق بالخلافة فطلبوا العباس ونادوه باسم الخلافة فأرسل أبو إسحاق إلى العباس فأحضره فبايعه ثم خرج إلى الجند فقال ما هذا الحب البارد قد بايعت عمي وسلمت الخلافة إليه فسكن الجند.

(2) الزط أو الجت أو الجيتان كما عرفوا في فرنسا وإسبانيا بداية عصر النهضة، هم قبائل من الغجر تم استقدامهم إلى جنوبي العراق في فترة الفتوحات الإسلامية المبكرة على يد الأمويين بعيد فتح بلاد السند للعمل في منطقة البصرة و البطائح، وما لبث أن استقدم معاوية بعض الزط من منطقة البطائح في العراق إلى منطقة بلاد الشام و أنطاكية لإحداث بعض التغيرات الديمغرافية ووضعهم في مواجهة الخطوط الأمامية للروم البيزنطيين، ثم نقل الوليد بن عبد الملك إلى أنطاكية مجدداً قوما من الزط السنديين ممن حمله محمد بن القاسم إلى الحجاج، كما أشار البلاذري في فتوح البلدان. واستمر وجودهم لاحقاً في العراق حتى كثرت مشاكلهم في العصر العباسي فتم استئصال شأفتهم في عهد المعتصم، و من ثم تهجيرهم إلى بغداد و منها إلى ثغر عين

[شط العرب]، لأنهم شعب متمرد ومصدر إزعاج للخلفاء، حيث أنهم يضربون ويقتلون ويسلبون التجار الذين يقصدون بغداد من البصرة والهند والصين.

ولم يستطع الجيش قهرهم لكونهم يقاتلون في الزوارق، فأرسل إليهم الأقباط الذين كان قد سباهم والمعتادين على الحياة في المياه.، فكانوا يغطسون في الماء كالسمك دون أن يراهم أحد ويمطرون الزطيين بالنبال ويهربون، وهكذا هزم البياميون الزطيين، وقبض عليهم وعلى نسائهم وأطفالهم وزجوا في سجن بغداد ثم أعدموا[1].

الزربة في كيليكيا.. ثم انطلقوا من هناك في تغريبة طويلة من المعاناة و الشقاء إلى الداخل التركي و إلى شرقي أوروبا ثم غربيها في مطلع العصر العثماني.

(1) يذكر الطبري في تاريخه حول حرب المعتصم على الزط ما يلي: وفى هذه السنة [219 للهجرة] وجه المعتصم عجيف بن عنبسة في جمادى الآخرة منها لحرب الزط الذين كانوا قد عاثوا في طريق البصرة فقطعوا فيه الطريق واحتملوا الغلات من البيادر بكسكر وما يليها من البصرة وأخافوا السبيل ورتب الخيل في كل سكة من سكك البُرُد تركض بالأخبار، فكان الخبر يخرج من عند عجيف فيصل إلى المعتصم من يومه، وكان الذي يتولى النفقة على عجيف من قبل المعتصم محمد بن منصور كاتب إبراهيم بن البختري، فلما صار عجيف إلى واسط ضرب عسكره بقرية أسفل واسط يقال لها الصافية في خمسة آلاف رجل، وصار عجيف إلى نهر يحمل من دجلة يقال له بردودا فلم يزل مقيما عليه حتى سده وقيل إن عجيفاً إنما ضرب عسكره بقرية أسفل واسط يقال لها نجيدا ووجه هارون بن نعيم بن الوضاح، القائد الخراساني، إلى موضع يقال له الصافية في خمسة آلاف رجل، ومضى عجيف في خمسة آلاف إلى بردودا فأقام عليه حتى سده وسد أنهارا أخر كانوا يدخلون منها ويخرجون، فحصرهم من كل وجه، وكان من الأنهار التي سدها عجيف نهر يقال له العروس فلما أخذ عليهم طرقهم حاربهم وأسر منهم خمسمائة رجل وقتل منهم في المعركة ثلاثمائة رجل فضرب أعناق الأسرى وبعث برؤوس جميعهم إلى باب المعتصم، ثم أقام عجيف بإزاء الزط خمسة عشر يوما فظفر منهم بخلق كثير وكان رئيس الزط رجلا يقال له محمد بن عثمان، وكان صاحب أمره والقائم بالحرب سملق ومكث عجيف يقاتلهم فيها قيل تسعة أشهر.

ويذكر خليفة بن خياط العصفري في تاريخه في أحداث سنة 219 للهجرة: وفيها أخرج الزط من البطيحة إلى بغداد على يدي عجيف.

حظوة الأقباط لدى الخليفة

بعد الانتصار الذي حققه الأقباط ضد الزطيين، أحبهم الخليفة واختار منهم جماعة يعملون في خدمته وحدائقه وبساتينه، وآخرون لينسجوا أقمشة قطنية، نظراً إلى اشتهار المصريين بهذه الحرفة. وأذن للبقية بالعودة إلى وطنهم. فلما وصلوا إلى البحر وركبوا السفن ليعودوا إلى مصر، لاحقتهم العدالة هناك، فقد ثارت زوبعة أغرقتهم جميعاً في البحر.

بناء سامراء

لقد ترك الخليفة أبو إسحاق بغداد، وسكن بين رافدين يتفرعان من دجلة ويسقيان بيت أرامايا[1]، وهما القاطول الكبير والقاطول الصغير[2]، لأنه أحب هذه المنطقة أكثر من بغداد لتوفر الهدوء والصيد فيها. وكان أحد الملوك قد خرب هذه المدينة، فأراد هارون الرشيد والد أبي إسحاق إعادة بنائها. وبعد أن بنى السور وأوشكت على الانتهاء تركها.

وبنى أبو إسحاق المعتصم قرية شومرا[3] [سامراء] الواقعة بين آثور وبابل واتخذها مقراً له. وكانت شومرا [سامراء] قرية صغيرة مشيدة على نهر دجلة، ولم

---

(1) جاء في معجم بيت بيتا لبنيامين حداد: بيت آرامايا، أرمايا. بلاد الآراميين، بلاد آرام، بلاد الكلدان، بلاد آشور أو آثور، بين النهرين، العراق، القسم المتوسط من العراق، إقليم يحيط بساليق وطيسفون (المدائن) وبغداد وعاصمته ساليق وطيسفون.

(2) يرد في تاريخ مار ميخائيل باسم قطلوب الكبير وقطلوب الصغير.

(3) هكذا يرد اسمها في المصادر السريانية وكان فيها دير. أما اسم سر من رأى فهو تخريجة لغوية لاحقة، لأن اسم سامرا سابق على بناء المعتصم للمدينة، إذ يرد ذكرها بهذا الاسم أو قريب منه في تاريخ أميانى اللاتيني في القرن الرابع الميلادي أيام يوليان الجاحد باسم حصن سومرا. وهي الآن مدينة تقع على الضفة الشرقية

تكن لها أية ميزة طبيعية، والسكنى فيها غير مريحة، وهي محرومة من كل خيرات الله، لكنه أحبها من أجل الصيد، فأنشأها وشق إليها قنوات من دجلة وغرس فيها جنائن وبساتين ونخيلاً، وجلب من مصر غرسات البلسم والبردي الذي يصنع منه الورق[1].

غرائب

شوهد في هذه الفترة بالقرب من البحرين، حوت كبير يبلغ طوله نحو ميل، فخاف البحرينيون أن يجوبوا البحر، وحتى الغواصون على اللؤلؤ امتنعوا عن النزول إلى البحر. وظل يقلق المنطقة لمدة ثلاثة أشهر. وكان الناس يخرجون للدعاء إلى الله لينقذهم منه، حتى قيض الله سمكة صغيرة طولها شبر واحد، دخلت في إذن ذلك الحوت وقضت عليه فقذفته الأمواج إلى الساحل، وأخذ الناس يقتطعون من لحمه ويشوونه، وإذ لم يستو ملحوه وجففوه في الشمس ثم طحنوه وأكلوه.

وفي هذا الزمان، أتوا إلى عبد الله بن طاهر حاكم خراسان، بمولود لما يبلغ السنة من عمره، لكنه في كامل قامة الرجال وقد ظهر شعر وجهه. إنه لأمر عجيب يفوق الطبيعة..

لنهر دجلة في محافظة صلاح الدين، وتبعد 125 كيلومتر شمالي بغداد، تحدها من الشمال مدينة تكريت، ومن الغرب الرمادي، ومن الشرق بعقوبة.

(1) مر المهلبي على سامراء بعد أكثر من قرن من بنائها فوجدها خربة. وكتب في الكتاب العزيزي ما يلي: وأنا اجتزتُ بسُر من رأى منذ صلاة الصبح في شارع واحد مادّ عليه من جانبيه دور، كأن اليد رفعت عنها للوقت لم تعدم إلاّ الأبواب والسقُوف، فأمّا حيطانها فكالجُدد، فما زلنا نسير إلى بعد الظهر حتى انتهينا إلى العمارة منها، وهي مقدار قرية يسيرة في وسطها، ثم سرنا من الغد على مثل تلك الحال فما خرجنا من آثار البناء إلى نحو الظهر، ولا شك أن طول البناء كان أكثر من ثمانية فراسخ. ومن مدينة سر من رأى إلى عكبرا اثنا عشر فرسخاً. وهي على شاطئ دجلة الشرقي، وهو بلد صحيح الهواء والتربة. وليس فيها عامر اليوم سوى مقدار يسير كالقرية.

في سنة 1146 [835م] جاء سيل جارف من نهر مدينة زبطرة[1] الواقعة على الحدود خلال الليل والناس نائمون، وارتفعت المياه فوق السور الذي انهار أمام قوة ذلك السيل وغطت المياه الشوارع والبيوت، وغرق نحو ثلاثة آلاف نفس داخل البيوت، ثم انهار السور من الجهة المقابلة، فانسابت المياه، فسقط العديد من البيوت والبنايات بسبب المياه، كما فاض دجلة ودمر بيوتاً وبنايات في بغداد..

وفي هذه السنة أثار مسلمو حران حرباً ضد المسيحيين، فهدموا فجر عيد القيامة، كنيستي مار جرجس ومار أحودامة المشيدتين حديثاً. وبسبب خلافاتهم، لحقت بالمسيحية اللعنة القائلة حوّل الرب أعيادهم حزناً.. وإلخ.

---

(1) زبطرة مدينة ويوجد على اسمها محافظة في تركيا المعاصرة، تقع في جنوبي غربي تركيا.

الرحلة الثالثة إلى بغداد

نزول البطريرك ديونيسيوس إلى الشرق لتهنئة المعتصم

في حزيران عام 1145 [834م] توجهنا للسلام على الخليفة أبي إسحاق الذي نُصِّب حديثاً، فوصلنا إلى نصيبين وصالحنا أبناء كنيستنا الذين شقهم منذ سنوات فيلكسينوس المتمرد، وفور اتحادهم معنا طردوه عند أبيرام القذر المقيم في بيت قروسطايي. وفي الموصل وقعنا في حيص بيص بسبب اختلاف الكنائس حول المناداة باسم المطارنة، حيث كان المواصلة يلقبون قرياقس من دير مار متى مطراناً، في حين لم يعترف التكارتة بذلك.

وأخيراً وبقوة الله، استطعنا أن نوفق بينهم لدى نزولنا إلى تكريت لرسامة مطران لهم، حيث وجدنا حلاً ارتضاه الطرفان، فكتبنا ما يلي: باسم الآب والابن والروح القدس. عندما حضرنا إلى تكريت، أنا ديونيسيوس البطريرك برحمة الله، مع من حضر من الأساقفة، عثمان أسقف التغالبة، أدي أسقف كرما، ايليا أسقف نرسيم، توما أسقف سجستان[1]، موسى أسقف بلد، قرياقس أسقف الموصل،

(1) سجستان أو سستان إقليم يقع في شرقي إيران، جنوبي خراسان وشمالي بلوجستان، وينقسم إدارياً في الوقت الحاضر بين إيران وأفغانستان. تعكس التسمية العربية سجستان التسمية القديمة لهذا الإقليم ساكستان

يوحنا أسقف بغداد، لننتخب ونرسم مطراناً للمدينة المشار إليها ولسائر المشرق، وقفنا على سبب النزاع بين دير مار متى وأسقفهم قرياقس مع التكارتة القاطنين مدينة الموصل.

ولدى بحثنا الموضوع، قال الماتيون [نسبة لدير مار متى]: إنه لتقليد قديم عندهم أن ينادى بالأسقف الذي يرسم لمنطقة نينوى، مطراناً في كنيستهم، وطالبوا تكارتة الموصل أن يفعلوا كذلك في كنيستهم. فرد عليهم تكارتة الموصل قائلين: لا يمكن إطلاقاً أن ينادى به سوى كأسقف عادي، ونرفض رفضاً باتاً أن يكون مطران آخر غير مطران تكريت.

فجمعنا كهنة وشمامسة ورهبان وأعيان تكريت وتداولنا معهم في كيفية إيجاد دواء لهذا الداء. فلما لاحظنا أن المناداة به لا تمس كرامة مطران تكريت، لا بل إنه يزداد كرامة بازدياد من هم تحت نفوذه، توصلنا إلى حل يرضي التكارتة ورهبان مار متى، وهو أن ينادى بقرياقس مطراناً في كنائس تكارتة الموصل أسوة بباقي الكنائس مرتين في السنة. الأولى، يوم أحد الشعانين حينما يجتمع المؤمنون لتبريك أغصان الزيتون في كنيسة التكارتة، والثانية، لدى تقديس الميرون. أما بقية أيام السنة فينادي التكارتة كما يشاؤون.

وقد وجدنا في المذكرة التي يقول الماتيون أن قرياقس كتبها قبل وفاته، ما يوجب المناداة بأسقف الموصل مطراناً في كنائس التكارتة، كما وجدنا ذلك في الرسالة

Sakastan أي أرض الساكا، الشعب السكيثي ذي الأصل الهندي الأوربي الذي سيطر في الألف الأول قبل الميلاد وحتى القرن الأول الميلادي على المنطقة التي تعرف اليوم بأفغانستان وشمال غربي الهند. (الموسوعة العربية، المجلد العاشر ص 735).

التي وضعها مجمع الرقة. واستناداً إلى هذا تم الاتفاق بين الماتيين والتكارتة على أن ينادى بأسقف الموصل مطراناً، وفي الوقت نفسه يكون خاضعاً لمطران تكريت.

وقد صممنا على أن نزيد من كرامة كرسي تكريت، فأكدنا على قانون سابق ينص على أن يقوم الأساقفة بالرسامات وتقديس المذابح في كل الكنائس، كل بالطريقة التي يناسبها. ولكن في حالة حضور المطران إلى المدينة، على أسقفها أن يفسح له المجال ليقوم بهذه الخدمات في كنائسه، نظراً إلى أولويته بين أساقفة المشرق، حيث إنه يلي البطريرك.

ولمطران تكريت أن يدعو إلى الاجتماع متى شاء الأساقفة الذين تحت سلطته.

وفي حالة نشوب خلاف بين الأسقف ورعيته، فهو الذي يفصل بينهم. وإذا شُكي الأسقف، فإنه يدعوه ويحقق معه ويصدر الحكم بحقه بمقتضى القوانين. وعلى المطران قرياقس ومن يخلفه الخضوع لمطران تكريت في هذه الشؤون.

لقد رتبنا هذه الأمور في تشرين الثاني سنة 1146 [835م] في تكريت، وبعد ذلك تم انتخاب ورسامة مار توما مطراناً لتكريت. وفيما كنا نتأهب لزيارة الخليفة، وردتنا أنباء من الغرب، فعدنا إلى الجزيرة لمعالجة البواعث التي دعتنا للعودة، ومن ثم ننزل من جديد للسلام على الخليفة.

تهنئة الخليفة

في مطلع عام 1147 [836م] دخلت إلى الخليفة أبي إسحاق كما اعتدت أن أفعل مع أخيه، فاستقبلني في المدينة الحديثة التي أنشأها بين كلا النهرين.

وكان ملك النوبيين جاورجي قد وصل إلى بغداد منذ شباط دون أن يقابله الخليفة، وكان قد كتب إليّ لدى وصوله إلى الرقة، بعد أن أمضى فترة طويلة في الطريق، يطلب زيارتي لأخذ البركة، فأجبته: لا يمكنني ذلك قبل مقابلتي للخليفة، وبإمكانك أن تسبقني وسوف أراك هناك.

وقد ذكّرت الخليفة بشأنه وقلت له، إني أود أن ألقاه لكونه من أبناء عقيدتي. ولم أعرف سبب ذلك التأخير، وبعد أن قابل الخليفة جاورجي وأكرمه بتوسط طبيبه سليمان، قال لي: اذهب والتق بذلك النوبي، فرافقني بعض الأساقفة والمؤمنين، فوجدناه شاباً ذكياً، ابن عشرين سنة، بهي الطلعة مهندماً ومهذباً، ذا هيئة تليق بالملوكية، وتحدثنا إليه بواسطة مترجم ولمسنا بأنه أرثوذكسي حقيقي غيور على الإيمان، يأنف مخالطة الهراطقة.

وقدمنا الذبيحة يوم الأحد وناولناه والذين معه، وكانوا حاملين معهم طقماً كاملاً من آنية القداس. وبعد أن أخذنا فرماناً من الخليفة وعدنا، أكرمنا ملك النوبيين ببعض الهدايا الذهبية والفضية التي تليق أن تقدم له من قبل أمثالي لتبقى ذكرى في مملكتهم.

الخليفة وملوك النوبيين

اعتاد ملوك النوبيين منذ أمد طويل، أن يقدموا لخلفاء المسلمين سنوياً ثلاثمائة وستين عبداً أسود، وقردة مدربة ومروضة على تقليد تصرفات الناس، وحيوانات تدعى زرافة وعاجاً وجلود النمور.

ومقابل ذلك كان خلفاء المسلمين يعطون لملوك النوبيين، كذا كيل من القمح من بلاد مصر وكذا كيل من زيت الزيتون، وأواني وثياباً فاخرة.

كما أذنوا لملك النوبة أن يجبي الضرائب من النوبيين الساكنين في بلاد المسلمين. وبموجب هذا الاتفاق لم يعد المسلمون يسبون النوبيين، ولا النوبيون يجتازون مدينة أسوان الحدودية من ناحية مصر، ويدخلون إلى أراضي المسلمين.

وحدث أن طرأ تغيير على هذه العادة من جراء الفتن والحروب التي دارت في العالم وعلى إثر القلاقل، في أيام الخليفة[1] هارون الرشيد، ومن جراء توسع ملك العرب واشتداد بأسهم، فاخذوا يستصغرون النوبيين وأبطلوا عادة تبادل الهدايا، وحينما أخذ أبو إسحاق بزمام الأمور في المملكة، أرسل سعاة إلى النوبيين يقول لهم: أرسلوا لنا ما يتوجب عليكم تجاهنا حسب العادة القديمة مع هدايا السنين الماضية، وإلا فسأرسل عربا يسبون بلادكم.

ولما بلغ الساعي بلاد نبادوس (النوبة)، وجد أن ملكهم قد مات، وكان يدير مملكتهم آنذاك شخص من الرؤساء يدعى زكريا، وكان هذا رجلاً فصيحاً وشهيراً بالذكاء والبسالة. ولكنه لم يكن من صلب الملوك، الأمر الذي لابد منه لمن يكون عليهم رئيساً وملكاً، وكان لزكريا هذا ابن من امرأة تنتمي في جنسها إلى صلب الملوك يدعى جاورجي، فأقاموه ملكاً عليهم ووضعوا على رأسه تاج الملوك، في حين استمر والده يدير دفة الأمور حتى بلغ سن الرشد.

فلما استقبل زكريا مبعوث الخليفة أبي إسحاق، ولاحظ أن العرب يدخلون باستمرار إلى البلاد ويسبون الأهالي، فكر في إرسال ابنه ذاته موفداً إلى الخليفة أبي إسحاق، لكي يلقى طلبه قبولاً حسنا عنده، مراعاة لابنه الذي يكرمه بمجيئه الشخصي إليه.

---

(1) يرد في الأصل السرياني لقب ملك بدل خليفة.

فرد الجواب على الساعي: إني لم أشأ أن أجيب سيدك برسالة بل هاأنذا أرسل ابني الذي هو اليوم ملك النوبيين لإكرام خليفتكم والسلام عليه.

وأرسل الساعي إلى أبي إسحاق يطلعه على الأمر، ولما سمع أبو إسحاق أن ملك النوبيين خرج ويلغ مصر، كتب إلى جميع الحكام، من مصر إلى بغداد يأمرهم بأن يستأجروا له جمالاً تكفي لإكرامه وان يدفعوا له كل يوم خمسين دينارا لنفقاته حيثما يحل، ويستقبله حكام المدن بما يليق به كملك.

ملك النوبة في الرقة

ففي الرقة، استقبله أمير الجزيرة واحتفى به المسيحيون والمسلمون، وتهافتوا عليه وكأنما شيئاً غريباً حدث في بلدهم. فقد كان يركب جملاً مسرجاً بسرج غريب يختلف عن سرج منطقتنا، تعلوه مظلة موشاة بأقمشة فاخرة، وعلى قمتها صليب ذهبي. وأمسك عصا بإحدى يديه وصليباً بالثانية، وإلى جانبيه يسير شباب نوبيون حاملين صلباناً بأيديهم، ويتقدمه أسقف راكب وبيده صليب، وكنيسة من خيمة، وجميع هذه الصلبان من ذهب، وجميع الفرسان والعبيد الذين معه، هم من السود. وكان يرافقه أسقفان آخران توفيا في الطريق، كما توفي بعض مرافقيه بسبب الثلج والجليد[1]. ولم يكن أبناء الرقة قد نظروا مثل هذه المشاهد من قبل.

---

(1) من الواضح أن الملك جاورجي سلك طريق مصر - دمشق الذي حدده ابن خرداذبة في بداية العصر العباسي وذكرناه أثناء رحلة البطريرك والخليفة المأمون. أما بقية الطريق من دمشق إلى الرقة فهي كمايلي: من دمشق إلى القطيفة 24 ميلاً، ومن القطيفة إلى النبك 20 ميلاً، ومن النبك إلى قارا 12 ميلاً، ومن قارا إلى جوسية 30 ميلاً، ومن جوسية إلى حمص 16 ميلاً. ومن حمص إلى حماة ثم إلى شيزر ثم إلى قنسرين وكورها ثم إلى حلب ثم إلى الناعورة ثم إلى خشاف ثم عبور الفرات إلى بالس ثم إلى دوسر ثم إلى الرقة. وكما يتضح هناك مناطق عديدة من هذه الطريق يسقط فيها الثلج بكثافة مثل القطيفة والنبك وقارا وجوسية.

وبعد أن أمضى جاورجي عيد الميلاد في الرقة، نزل إلى بغداد فاحتفى به الجيش في الشوارع، وحل في أحد القصور الملكية، ومكث هناك من شباط حتى مطلع آب دون أن يواجه الخليفة أبا إسحاق.

سبب التأخير

أما سبب تأخير لقائه بالخليفة فهو: أن نوبياً ممن كانوا يجبون ضرائب الملك من النوبيين الذين في بلاد المسلمين، تمرد على الملك وأشهر إسلامه، فقبض عليه وكبله بالسلاسل، فكتب ذاك الشقي إلى خليفة المسلمين يقول (إن هذا رجل محتال وليس ابن ملك).

فأرسل الخليفة إلى مصر من يحقق في أمر ذلك المتمرد. لذا تأخر دخول جاورجي إلى أبي إسحاق، ولما أكدّ التحقيق بأنه ملك وابن ملك، أرسل بطلبه، وأمر القوات العسكرية أن تستقبله بكامل أسلحتهم وزينتهم، فاجتاز بينهم وهم منتظمون على جانبي الطريق، يعلو رأسه إكليل، ويعلو تاجه صليب.

وهيأ أبو إسحاق مجلساً أكثر عدداً من المأمون، ولما دخل أمسكه من يديه وأجلسه أمامه. ولما علم منه بواسطة مترجم انه أقبل للسلام عليه، قبله بفرح وأعطاه هدايا كثيرة حسب عادة الملوك، من فضة وذهب وثياب ومسك وعنبر وعشرين جملا من النوع السريع (الذلول)، وزوده برسائل إلى حكام بلاده كلهم لكي يكرموه ويقدموا له النفقات حتى يصل إلى بلاده.

وفي طريق عودتنا من بغداد سنة 1148 [837م] نمي إلينا خبر وفاة أبيرام فتوجهنا فوراً إلى بيت قروسطايي لنستميلهم إلينا.

أحداث

في سنة 1152 [841م] أرسل ثاوفيل ملك الروم هدايا إلى أبي إسحاق خليفة المسلمين وطلب تبادل الأسرى بين الروم والمسلمين، فقبل أبو إسحاق الهدايا وقدم له بالمقابل هدايا أفخر قائلاً: نحن العرب نأبى أن نقارن المسلمين بالروم لأن الله أعطانا كرامة أعظم، ولكن إذا قدمت لي أسرى المسلمين دون مقابل، فسنكافئكم أضعافاً، واعلم أننا نحن المنتصرون. فعاد الوفد ومعه خمسون حمل جمل من الهدايا الفاخرة. وهكذا تم السلام بين الملكين.

صعود الأفشين وسقوطه

أما الأفشين الذي ارتفع مثل كفر ناحوم[1] ثم هبط إلى الهاوية برذل الخليفة إياه بسبب ابن أخته، فقد فكر بالعصيان واغتيال الخليفة، فأخذ رفاقه من الخراسانيين ليذهب إلى خراسان ويقتل عبد الله بن طاهر ويتسلم ملك آبائه في خراسان. ولكن ألقي القبض على رسوله فأخبر الخليفة بالمهمة التي أرسله بها أفشين، وسلم إليه رسائل كتبت باللغة الخراسانية، فكتب الخليفة إلى عبد الله ليقبض على الحسن بن أفشين حاكم خراسان ليحول دون عصيانه إذا ما علم باعتقال والده.

وأمر الخليفة أن يطرح الأفشين في أعماق الأرض وتصادر جميع أملاكه.

فكتب ابن طاهر إلى ابن الأفشين أن يأتي بأمر الخليفة ويستلم مكان نوح بن أسد، فصدق وتوجه إلى نوح فقبض عليه وكبله وأرسله إلى عبد الله بن طاهر وقال له: بأمر الخليفة عليك أن تطلّق زوجتك، ففعل الحسن مكرهاً، فأرسلت إلى أبيها

---

(1) استشهاد بالكتاب المقدس إنجيل لوقا 13:14- 15: وإن ارتفعت إلى السماء سوف تهبطين إلى الجحيم. يحدد لوقا كفر ناحوم.

أشناس[1] صحبة العبيد وأسرة الحسن، وأرسل الحسن مكبلاً إلى الخليفة فسجن في الأعماق مع والده الذي مات تحت العذاب وأشيع عنه بأنه لم يكن مختوناً، ويسجد للصنم الذي وجد في بيته.

أبو حرب المبرقع

سنة 1153 [842م] ظهر في فلسطين شخص يدعى تميم المقلب بأبي حرب[2]، زعم أنه ملك، فتبعه ثلاثون ألفاً من الجياع والعراة، وكان يغطي وجهه ببرقع

---

(1) يرد اسمه لدى التلمحري أشنوق، وهو أشناس في المصادر العربية الإسلامية. يذكر الطبري أن الحسن بن الأفشين تزوج ابنته. وأشناس مملوك تركي للمعتصم وأحد أشهر قواده.. وشارك في فتح عمورية، وله ذكر في حروب المأمون.

(2) هو أبو حرب المبرقع اليماني، وقصته يذكرها الطبري في تاريخه كما يلي: (ذكر لي بعض أصحابي ممن ذكر أنه خبير بأمره أن سبب خروجه على السلطان كان أن بعض الجند أراد النزول في داره وهو غائب عنها وفيها إما زوجته وإما أخته، فمانعته ذلك فضربها بسوط كان معه فاتقته بذراعها فأصاب السوط ذراعها فأثر فيها، فلما رجع أبو حرب إلى منزله بكت وشكت إليه ما فعل بها وأرته الأثر الذي بذراعها من ضربه، فأخذ أبو حرب سيفه ومشى إلى الجندي وهو غار فضربه به حتى قتله ثم هرب وألبس وجهه برقعا كي لا يعرف فصار إلى جبل من جبال الأردن، فطلبه السلطان فلم يعرف له خبر.

وكان أبو حرب يظهر بالنهار فيقعد على الجبل الذي أوى إليه متبرقعاً فيراه الرائي فيأتيه فيذكره ويحرضه على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ويذكر السلطان وما يأتي إلى الناس ويعيبه. فما زال ذلك دأبه حتى استجاب له قوم من حراثي أهل تلك الناحية وأهل القرى. وكان يزعم أنه أموي فقال الذين استجابوا له هذا هو السفياني.

فلما كثرت غاشيته وأتباعه من هذه الطبقة من الناس دعا أهل البيوتات من أهل تلك الناحية فاستجاب له منهم جماعة من رؤساء اليمانية، منهم رجل يقال له ابن بيهس كان مطاعا في أهل اليمن ورجلان آخران من أهل دمشق، فاتصل الخبر بالمعتصم وهو عليل علته التي مات فيها فبعث إليه رجاء بن أيوب الحضاري في زهاء ألف من الجند، فلما صار رجاء إليه وجده في عالم من الناس.

فذكر الذي أخبرني بقصته أنه كان في زهاء مائة ألف، فكره رجاء مواقعته وعسكر بحذائه وطاوله حتى كان أول عمارة الناس الأرضين وحراثتهم، وانصرف من كان من الحراثين مع أبى حرب إلى الحراثة، وأرباب الأرضين إلى أرضيهم وبقى أبو حرب في نفر زهاء ألف أو ألفين.

ناجزه رجاء الحرب فالتقى العسكران عسكر رجاء وعسكر المبرقع فلما التقوا تأمل رجاء عسكر المبرقع فقال لأصحابه ما أرى في عسكره رجلاً له فروسية غيره وإنه سيظهر لأصحابه من نفسه بعض ما عنده من

ويتظاهر بالغيرة على شريعة النبي، وأنه جاء من أجل المستضعفين. ولم يكن ليأخذ جزية أكثر من أربعة قروش، ففرح به الكثيرون. غير أنه لم يستمر على هذا الأسلوب، بل أخذ يسلب ويقتل.

وصعد إلى القدس، فهجرها المسلمون والمسيحيون واليهود، ودخل الجوامع والكنائس. وبعد أن اغتصب كل شيء حاول أن يحرق كنيسة القيامة وغيرها، فأرسل له البطريرك مالاً وفيراً.

فأرسل له الخليفة المعتصم رجاء الحضاري على رأس ثمانية آلاف. ولما وصلوا إلى الرقة وردهم نبأ وفاة أبي إسحاق، فاستعدوا للنهب، غير أن الله أشفق، إذ ورد للحال نبأ خلافة ابنه هارون الواثق، فتراجع المتمردون وهدأت الحالة.

الرجلة فلا تعجلوا عليه. قال: وكان الأمر كما قال رجاء، فما لبث المبرقع أن حمل على عسكر رجاء فقال رجاء لأصحابه أفرجوا له فأفرجوا له حتى جاوزهم، ثم كر راجعا فأمر رجاء أصحابه أن يفرجوا له فأفرجوا له حتى جاوزهم، ورجع إلى عسكر نفسه.

ثم أمهل رجاء وقال لأصحابه إنه سيحمل عليكم مرة أخرى فأفرجوا له فإذا أراد الرجوع فحولوا بينه وبين ذلك وخذوه ففعل المبرقع ذلك فحمل على أصحاب رجاء فأفرجوا له حتى جاوزهم ثم كر راجعاً، فأحاطوا به فأخذوه فأنزلوه عن دابته. قال: وقد كان قدم على رجاء حين ترك معاجلة المبرقع الحرب من قبل المعتصم مستحث، فأخذ الرسول فقيده إلى أن كان من أمره وأمر أبى حرب ما كان مما ذكرنا ثم أطلقه.

قال: فلما كان يوم قدوم رجاء بأبي حرب على المعتصم عزله المعتصم على ما فعل برسوله، فقال له رجاء: يا أمير المؤمنين جعلني الله فداك، وجهتني في ألف إلى مائة ألف فكرهت أن أعاجله فأهلك ويهلك من معي ولا نغنى شيئا، فتمهلت حتى خف من معه ووجدت فرصة ورأيت لحربه وجهاً وقياماً فناهضته وقد خف من معه وهو في ضعف ونحن في قوة وقد جئتك بالرجل أسيرا.

قال أبو جعفر، وأما غير من ذكرت أنه حدثني حديث أبى حرب على ما وصفت فإنه زعم أن خروجه إنما كان في سنة 226 وإنه خرج بفلسطين أو بالرملة فقالوا إنه سفياني فصار في خمسين ألفا من أهل اليمن وغيرهم، واعتقد ابن بيهس وآخران معه من أهل دمشق فوجه إليهم المعتصم رجاء الحضاري في جماعة كبيرة، فواقعهم بدمشق فقتل من أصحاب ابن بيهس وصاحبيه نحوا من خمسة آلاف وأخذ ابن بيهس أسيرا وقتل صاحبيه، وواقع أبا حرب بالرملة فقتل من أصحابه نحوا من عشرين ألفا وأسر أبا حرب فحمل إلى سامرا فجعل وابن بيهس في المطبق).

بيد أن ابن بيهس[1] الدمشقي جمع خمسة آلاف رجل فسلب وقتل، فلحق به رجاء وقتل أربعة آلاف من رجاله وتشتت الباقون. ثم وجه رجاء أنظاره إلى أبي حرب، ومسك أحد جواسيسه، وبعد أن أخبره عن مكانه، أكرمه وأجزل له العطاء وأرسله إلى أبي حرب ليدعوه إلى السلام، وقال: إنه لن يتحرك من مكانه حتى يأتيه الجواب، لكنه غادر مساء ذلك اليوم، وفي الصباح هجم على أبي حرب وقتل ثمانية آلاف، وأسر ألفاً مع أبي حرب وهو مصاب، وأرسلهم إلى الخليفة.

تمرد في الجزيرة

في هذه الأثناء، أخذ أهل نصيبين ودارا وآمد يمارسون اللصوصية. فأرسلت إليهم قوة من الفرس. ودار قتال بالقرب من دارا، فقتلوا نحو ألف مسلم، ونهبوا كل شيء، ولم يقتلوا المسيحيين لأنهم كانوا ناقمين على المسلمين، ونجا عدد كبير من المسلمين بحملهم صلباناً..

وفاة أبي إسحاق المعتصم

مات أبو إسحاق[2] وترك ثروة هائلة، لأنه كان يستوفي الضرائب على كل شيء حتى الأموات، وبنى مدينة سامراء وأغناها، بلغت كلفة إنشاء الحمام 32 ألفاً من

(1) يرد اسمه في الأصل السرياني بربيوس أي ابن بيوس. ويذكر ابن الأثير في الكامل انه لما مات المعتصم ثارت القيسية (عند الطبري اليمانية) بدمشق وعاثوا وأفسدوا وحصروا أميرهم، فبعث الواثق إليهم رجاء بن أيوب الحضاري، وكانوا معسكرين بمرج راهط شمالي دمشق، فنزل رجاء بدير مران بسفح قاسيون، ودعاهم إلى الطاعة، فلم يرجعوا فواعدهم الحرب بدومة يوم الاثنين. فلما كان يوم الأحد، وقد تفرقت، سار رجاء إليهم، فوافاهم وقد سار بعضهم إلى دومة، فقاتلهم، وقتل منهم نحو ألف وخمسمائة، وقتل من أصحابه نحو ثلاثمائة وهرب مقدمهم ابن بيهس وصلح أمر دمشق.

(2) حسب التلمحري توفي كل من المعتصم وثاوفيل عام 843م بينما يضع المؤرخون العرب المسلمون الوفاة اليوم نفسه في 18 من ربيع الأول 227هـ= 5 من يناير 842م.

الفضة. وكان يتقاضى ضريبة الدخول إلى سامراء 30 ألفاً من الفضة سنوياً. كان شبقاً ومدمناً على شرب الخمر، تحرر بموته ثمانية آلاف عبد، وترك 40 ألف فرس خاصة للركوب و20 ألف بغل خاصة بالحمل، و30 ألف سائس من العبيد.. وفي السنة نفسها التي توفي فيها، توفي كذلك ثاوفيل ملك اليونان.

كوارث

في سنة 1153 [842م] خلا الشتاء من المطر فلم تنبت الزروع حتى أيار حيث توالى سقوط الثلوج واشتد البرد. فشح القمح وقل الدخل وساد الجوع والمرض والموت. والأنكى من هذا، تلك الضرائب الباهظة القاسية، وخبث الحكام المتعطشين إلى دماء المساكين، ولم يكن الفقير يدري إلى أين يفر، كما لا يدري هل يسد رمق أبنائه الجياع أم يجمع الضريبة للمحصلين الأوباش، أم يعتني بالمرضى من أفراد أسرته. وكان بود الكثيرين من الفقراء الخروج لالتقاط حطب للنار أو أعشاب ليأكلوها بدلاً من الخبز، لكنهم لم يتمكنوا بسبب البرد القارص، فكان الجوع والبرد ينهشهم في البيت. ولما لم يجد الأغنياء خبزاً ولا زرعاً في الأرض، قرروا عدم بيع القمح لئلا ينتفع الفقراء.

وفي نيسان سقطت الأمطار وتحسنت الزروع، وأرسل الله بَرَداً دمر عدة قرى في الجزيرة والغرب، ثم أرسل جراداً زحافاً يأكل الزروع المتأخرة، ونمت الأشواك، وهبت عاصفة قلعت الأشجار من أصولها وقذفتها في الفضاء، وشوهدت أتربة الحقول تنتقل إلى حقول مزروعة وتغطي الزروع فتغدو وكأنها بيادر الحنطة.

وفي هذا الشتاء نفسه احتشدت الجيوش في منطقة قردا[1] لمحاربة موسى المتمرد زعيم الأكراد، فاحتمل أبناء المنطقة ضيقاً شديداً بسبب الجنود الذين كانوا يحلون في بيوتهم يأكلون ويشربون، فعم الغلاء فبيع كيل الملح بأربعين قرشاً وأوقيتا جبن بقرش، وخمسون جوزة بقرش، في حين كانت المنطقة تصدر الجوز والجبن.

ولم يتمكن الفرس من الأكراد، لأن الأخيرين لا يخرجون للقتال إلا بعد أن يأكلوا ويشربوا ويناموا، في حين جمدّ البرد القارس الفرس وفتت أصابعهم، وقتل منهم نحو 15 ألفاً. وانتشر وباء واستمر سنتين، بدأ في ما بين النهرين واجتاز إلى الغرب، وكان تأثيره أشد في فلسطين وساحل البحر، فأقفرت عدة قرى، وظلت الحقول بلا حصاد. وقد أخرجت خمسمائة جثة من مدينة الرملة في يوم واحد. ولعجزهم عن حفر القبور، كانوا يحفرون خنادق طويلة ويرمون فيها الجثث. هذا وقد فني ثلثا سكان فلسطين بهذا الوباء.

وفي أيار عام 1154 [843م] ظهرت في الجهة الشمالية من السماء، علامة حمراء كالنار، وتكرر ظهورها في 26 نيسان لثلاث ليال متتالية، حيث كانت تظهر في الجهة الشمالية في أول الليل وتستمر حتى الصباح، كما كانت تشاهد أشعة مضيئة كالمشاعل. وفي العاشر من الشهر نفسه أرسل الله غمامة كثيفة ممطرة، لم نسمع أو نرى حتى ولا الشيوخ رأوا نظيراً لها، حيث أن السيول جرفت حجارة ضخمة، واستحالت البقاع إلى بحيرات، وأصابت حران أضرار جسيمة من جراء انسياب جداول من جبل حسما والجبل المعروف بـ (راكب رأسه) أي المنفذ، وتكوينهما نهراً عظيماً اجتاح قرى المنطقة حتى بيت قوبا، فامتلأت الدور والفنادق والحوانيت بالماء

(1) قردا اسم منطقة في بلاد الجزيرة، وأكد ابن حوقل أنها هي نفسها جزيرة ابن عمر، في المنطقة الحدودية التركية القريبة من مدينة القامشلي السورية حالياً. وسبب التسمية كثرة وجود شجر الخروع الذي يسمى باللغة السريانية قردا لتشابه بذور ثماره مع القراد الذي يتطفل على الحيوانات ويسمى بالسريانية قردا.

وسقطت، وفي بعض المناطق سقطت البيوت على الناس وأغرقتهم. ولولا أن السيل حدث في النهار فجمع الحاكم الناس وأقاموا سدوداً، لبادت المدينة بأسرها.

ووصل الفيضان إلى الرقة، تاركاً وراءه دماراً وخراباً.. بعد ذلك، حدث رعد هائل في قيليقية أرمينيا في حزيران، فسقطت ثمانية أبراج من سورها وعدة دور، ومات نحو مئتي نفس، وظل الناس في العراء مدة شهرين خوفاً من الرعود التي لم تهدأ ليل نهار.

وفي تموز في تلك السنة شب حريق في بغداد والبصرة في نفس اليوم ونفس الساعة، فاحترق أكثر من 15 ألف حانوت في بغداد وكذلك في البصرة. وفي اليوم ذاته انقلبت إحدى المدن في خراسان وغطت سكانها واستحالت إلى تل، ولم ينج منها سوى رجل وحمار فقط.

وفي 24 أيلول ظهر في الجهة الشمالية من السماء ما يشبه سحابة نارية ابتدأت من الشرق واتجهت نحو الشمال نحو الغرب، وكان جزؤها العلوي أحمر كالدم، والسفلي كلون القمر، وكان نوره ينعكس، في الجهة الشرقية، على كافة الأسوار والبيوت، في حين كانت الجهة الجنوبية مظلمة. وكانت هذه العلامة تشاهد اعتباراً من الساعة الثانية مساءً حتى صياح الديك، حيث يسود الظلام أكثر حلكة..

جشع الحكام

لقد اشتد الضيق على الناس في هذه الفترة أكثر من أي فترة أخرى من حكم العرب، بسبب جشع الحكام. فإن أي زيادة في الضرائب كانت من حصة الحاكم، وكان يفرضها بسبب هواه. وقد عُين عمال لكل دائرة لكي يبتلعوا المساكين بشكل أو بآخر.

ففي الرقة، عينوا حاكماً يدعى قاضي، وصاحب خراج للضرائب، وصاحب شرطة لمراقبة العابثين والفاسدين، وصاحب بريد لمراقبة الناس وإرسال أخبار المنطقة إلى الخليفة، وآخر على غلات الصوافي[1]، وآخر للنظر في تظلم الناس، لكنه كان يظلم أكثر من الكل. وهذا ما فعلوه في كل مدينة[2].

---

(1) الصوافي هي الأملاك والأراضي التي جلا عنها أهلها أو ماتوا، ولا وارث لها. وأحدها صافية. وقال الأزهري يقال للضياع التي يستخلصها السلطان لخاصته الصوافي.

(2) يرد عند الطبري موقف منسوب لأبي جعفر المنصور فيه حديث عن الجهاز الإداري للدولة: ذكر عن محمد بن سالم الخوارزمي وكان أبوه من قواد خراسان قال سمعت أبا الفرج خال عبد الله بن جبلة الطالقاني يقول سمعت أبا جعفر يقول ما كان أحوجني إلى أن يكون على بابي أربعة نفر لا يكون على بابي أعف منهم. قيل له يا أمير المؤمنين من هم؟ قال هم أركان الملك ولا يصلح الملك إلا بهم كما أن السرير لا يصلح إلا بأربع قوائم إن نقصت واحدة وهى. أما أحدهم فقاض لا تأخذه في الله لومة لائم، والآخر صاحب شرطة ينصف الضعيف من القوي، والثالث صاحب خراج يستقصي ولا يظلم الرعية فإني عن ظلمها غني والرابع، ثم عض على إصبعه السبابة ثلاث مرات يقول في كل مرة آه آه، قيل له ومن هو يا أمير المؤمنين قال صاحب بريد يكتب بخبر هؤلاء على الصحة.

ولكي يتطلع الناس إلى أية درجة من الخبث أوصل الجشع الحكام، أسرد بعض أعمالهم:

لما سمع علي بن إسحاق حاكم دمشق أن ثريّاً توفي، استدعى أولاده واتهمهم بقتل والدهم، فأجابوا بأنه مات موت ربه. قال: كلا، بل قتلتموه لكي ترثوه. فكبلهم بالسلاسل وزجهم في السجن. وفي الليل أمر بإخراج والدهم من القبر وذبحه وإعادة دفنه.

وفي الصباح دعاهم وقال لهم: إن كنتم صادقين أخرجوا أباكم من القبر، ففعلوا دون أن يدروا بما جرى فوجدوه مذبوحاً، فجلدهم وصادر ثروتهم.. وكان يشتري جمالاً هزيلة ويفرض على القرى تسمينها في الشتاء، ولشدة ضعفها كانت تموت، فكان يدعي بأنها جمال الخليفة فيأخذ ثلاثين ديناراً ثمناً لكل واحد..

فيما كان حاكم قورس يتجول من قرية إلى أخرى شاهد جملاً يتبول في الطريق فقال لصاحبه لماذا تدع جملك يتبول في الطريق، فإن المسلمين سيمرون من هنا وينزلقون ويسقطون، فسجنه مع جمله حتى دفع له. وفي اليوم التالي شاهد شخصاً سقط من حماره وفدغ رأسه، وإذ علم بأنه حماره وأنه نفر وأسقطه، أمر بقتل الحمار باعتباره قاتل صاحبه. فاضطر المسكين إلى دفع دينارين للحاكم، وأنقذ الحمار..

أحمد بن أبي داود والموالي

أصدر أحمد بن أبي داود[1] مجموعة من القرارات الجائرة، هذه عينات منها:

---

(1) أحمد بن أبي داود بن جرير، أبو عبدالله القاضي الأيادي كان قاضي القضاة في زمن المعتصم والواثق، كما في تاريخ بغداد 4 / 141 رقم 1825.

عندما كان يشتكي شخص على آخر، كان يسحبهما كليهما ويفرض عليهما الجزاء، فامتنع الناس من رفع الشكاوى إليه، وتمسكوا مضطرين بالوصية القائلة: لا تجاز الشر بالشر.

وكان الحكام يمنعون الناس من جني الكروم في مواسمها حتى يتقاضوا من كل واحد ألف دينار عن الكروم، وكذا الأمر بالنسبة إلى المعاصر، إذ كانوا يمنعون عن العصر حتى يدفعوا ما يطلبون، وكانوا يختمون الخمر التي في الجرار حتى يتقاضوا من البائعين والشارين.

وكانوا يفرضون الضرائب حتى على الطرقات وأبواب المدن، ويأخذون قسماً من الأكداس أثناء الحصاد، وكذلك يفعلون خلال جني الزيتون..

وإذا ما تحدثنا عن أعمال أفراد عشيرته الموالي[1] يتيه العقل ويعقل اللسان من كثرة جرائمهم. فقد تجبروا ولم يستطع أحد أن يقاومهم أو يردعهم عن إشباع رغباتهم، فكان المولى يحل فدان المسيحي من حقله، ويحرث حقله هو، ويسخّر الرجل وعائلته لحصاد حقله والعمل معه، ولم يكن الحاكم ليردعهم. وإذا ما رغب المولى في قرية ما، ضاعف على أبنائها الضرائب حتى يضطروا إلى بيعها فيشتريها بأبخس الأثمان. وبهذا الأسلوب اغتصب أحمد بن أبي داود عدة قرى. وقد احتمل الناس حتى المسلمين الكثير من العنف من الحكام والموالي.

---

(1) الموالي جمع مولى، هم الخدم والأتباع والحلفاء في لغة العرب. وهم في معظمهم من الفرس والترك والروم، بتفرعاتهم كافة. في فترة الخلافة العباسية ازداد نفوذ الموالي كثيراً ووصل الكثير منهم إلى أرفع المناصب حتى استحوذوا على القيادة العسكرية، وبذلك أصبحوا القادة الفعليين للدولة، ومع سيطرة الموالي عسكرياً ثم مدنياً، بدأت ظاهرة الشعوبية القائمة على احتقار العرب مقابل تعظيم الفرس.

أدرج أدناه إحدى قصصهم التي تدعو إلى السخرية وتفضح رياءهم. فلقد دخل زوجة أحد مسلمي المنطقة شيطان من النوع الذي يتكلم من الداخل، فأتى والدها بساحر ليخرج الشيطان، غير أن الشيطان شتم الساحر أمام الجمهور الذي احتشد ليشاهد هذا الوهم.

ولما فشلت تمتمات الساحر، اعتمد سيفاً وهدد بقتل الشيطان، فصرخ الروح الشريرة بفم المرأة قائلاً: اسمعوا أيها المحتشدون، فأنا ولئن كنت من أبناء الأرض[1] غير أني انتمي بجنسي إلى عنصر الموالي، فأنا مولى من أصدقاء أحمد ابن أبي داود، وأن هذا يحاول قتلي.

فلما سمع الساحر اسم الموالي هرب لئلا يقتلوه، غير أن الموالي حاولوا الانتقام من الشيطان الذي التجأ إليهم. وهكذا التجأ الكثير من الناس إلى الموالي مثل الشيطان لكي يحموهم من الحكام الذين على يدهم ويد أتباعهم كانت تتطاير غلات المساكين، ولم يكن من يغيث، ولم يكن الخليفة يفتح أبوابه للناس.

والأنكى، أن الله أيضاً غض طرفه، فإن دعونا لا يستجيب لأننا أغضبناه بأعمالنا السيئة، ولأننا، كما يقول [بولس] الرسول، صرنا نتحدث بالإثم والغش ونفكر بالسوء والأمور المشينة[2].

وبسبب هذه الأعمال وأمثالها، أسلم الله المسيحيين بأيدي الأعداء، فتسلط عليهم مبغضوهم الذين حاولوا القضاء على الحرية التي تضمنتها شرائع المسيحيين، إلى جانب ما كبدوهم من المآسي.

---

(1) يسمى السريان الجن أبناء الأرض.

(2) من الواضح أن البطريرك التلمحري يشير إلى رسالة بولس الرسول إلى أهل رومية 1/ 18: {لِأَنَّ غَضَبَ اللهِ مُعْلَنٌ مِنَ السَّمَاءِ عَلَى جَمِيعِ فُجُورِ النَّاسِ وَإِثْمِهِمِ، الَّذِينَ يَحْجِزُونَ الْحَقَّ بِالإِثْمِ}.

وعليه، فإني بألم شديد وحزن عميق، أدون هذا التأديب، لكي أظهر كيف أن الله أفاض غضبه علينا واستل سيفه وامتد قوسه، مُهيِّأً لنا وسائل الغضب.

خاتمة

والآن أقول: حتى متى أحتملكم؟ ما الذي كان علي أن أفعله ولم أفعله، وقد استهنتم بالتوبة وقسَّيتم قلوبكم بسبب طول أناتي عليكم. اكتنزتم لكم كنز رجس ليوم الغضب. وقد تردون علي قائلين: لماذا، وأنت تمسك بزمام الكنيسة، لا تسهر عليها بجدية لكي يسمع الرب صلاتك ويبعد عنها غضبه كما فعل موسى الذي صلى من أجل إسرائيل فاستجيب له؟ ولمثل هؤلاء أقول: أنا أيضاً خاطئ كسائر الناس، ولا دالة لي كدالة موسى.

وقد يقال: إن تقواك ائتُمنت على نواميس الرب غير المدركة، وأُعطيت وكالة على هذه الحياة المتنوعة التي تعتبر إدارتها فن الفنون ومعرفة المعارف، وقد أدركت بالخبرة الصعوبة التي يلاقيها الرعاة لا سيما إذا كان لهم قلب حساس، فإن القلب الحساس سوس للعظام.

لا حاجة لي أن أوضح لفطنتك آلامي الكثيرة، فإني أقضي الليالي الكثيرة أرقاً، وتمر علي الأيام دون أن أرى للراحة طيفاً، بل يزيدني الدهر آلاما وأوجاعا لا تحصى هذه الأيام التي تحرق القلب وتذيب الجسد، لأن كل واحد انتحى جانباً وليس من يفهم ويطلب الله. فلو كنت قديساً مثل موسى، ورؤوفاً مثل إرميا كان باستطاعتي أن أفيد الشعب الذي يصر على موقفه ولا يغيره. فموسى لم يصلِّ لمفرده ولئن كان

صامتاً، لكنه شارك الشعب في الصلاة. فاما رفعوا أنظارهم ورأوا المصريين، خافوا كثيراً كما كتب فصرخوا إلى الله. فصرخة الشعب وتوبته فتحت الباب أمام صلاة موسى.

أما نحن، من منا هو تائب، أو من يقبل الإرشاد ويتقيد بالقوانين ولا يهزأ ويهز رأسه ويسخر من القوانين وواضعي القوانين. إنه لمن العدل أن يقال لنا ما قيل لإرميا: {وَأَنْتَ فَلاَ تُصَلِّ لأَجْلِ هذَا الشَّعْبِ وَلاَ تَرْفَعْ لأَجْلِهِمْ دُعَاءً وَلاَ صَلاَةً، وَلاَ تُلِحَّ عَلَيَّ لأَنِّي لاَ أَسْمَعُكَ}[1]. وقوله أيضاً: {وَإِنْ وَقَفَ مُوسَى وَصَمُوئِيلُ أَمَامِي لاَ تَكُونُ نَفْسِي نَحْوَ هذَا الشَّعْبِ}[2].

وعليه نقول مع إرميا {وَيْلٌ لَنَا لأَنَّنَا قَدْ أَخْطَأْنَا. مِنْ أَجْلِ هذَا حَزِنَ قَلْبُنَا. مِنْ أَجْلِ هذِهِ أَظْلَمَتْ عُيُونُنَا}[3]. كما نصرخ مع بولس {إن الزمان قصير}[4].

و{أدركهم الغضب إلى النهاية}[5]. واليوم، توجد علامات كثيرة، إحداها، التأديب الذي يقول عنه الرسول {عند مجيئه سيظهر ابن الهلاك}[6].

لذا فإني أبكي وأنوح على حياتي فأتجرع هذه الغصص المريرة لأجل خطاياي وأتفجع عندما أرى بأم عيني المصائب الكثيرة تحيق بأبناء الكنيسة وتتزايد هذه الآلام كل يوم.

---

(1) الكتاب المقدس، العهد القديم، سفر إرميا 7: 16.

(2) الكتاب المقدس، العهد القديم، سفر إرميا 15: 1.

(3) الكتاب المقدس، العهد القديم، سفر مراثي إرميا 5: 16-17.

(4) رسالة القديس بولس إلى كورنثوس1، 7: 29.

(5) رسالة القديس بولس إلى أهل تسالونيكي1، 2: 16.

(6) رسالة القديس بولس إلى أهل تسالونيكي2، 2: 3.

وإني الآن أتخيل العقاب الرهيب الذي لا مناص منه، والعتيد أن يكون في الآخرة، وأنا واقف على الباب. وأن الحل الوحيد من وثاقات الخطيئة هو الموت الذي اشتاق إليه كشيء عذب جميل. وعلى أمل بلوغ ذلك اليوم فإني أتذكر وأغذي نفسي بما كتبه أحد القديسين إلى شخص كان يتألم من أجل الكنيسة مثلي، حيث قال لا تستسلم للخيال في ما يخص آلام الكنيسة العامة، بل غذ نفسك بالرجاء والفضيلة، وتذكر ما قاله السيد لتلاميذه: {إِنْ كَانُوا قَدِ اضْطَهَدُونِي فَسَيَضْطَهِدُونَكُمْ}[1] وما قاله بولس لطيمثاوس {وَجَمِيعُ الَّذِينَ يُرِيدُونَ أَنْ يَعِيشُوا بِالتَّقْوَى فِي الْمَسِيحِ يَسُوعَ يُضْطَهَدُونَ}[2].

(1) الكتاب المقدس، العهد الجديد، إنجيل يوحنا 15، 20.

(2) رسالة بولس الرسول إلى تيموثاوس 2، 3: 12.

ملحق رقم 1

نص رسالة تنصيب البطريرك ديونيسيوس التلمحري

إلى المؤمنين الحقيقيين، أحباءنا بالرب، الكهنة والشمامسة والشعب محب المسيح الذي في شتات مدينة أنطاكية العظمى وكورتها.. المجمع المقدس المنعقد بالروح القدس في مدينة الرقة.

لكم وافر السلام والرحمة بمخلصنا المسيح: ولئن نحن وإياكم أحباء، بيد أن صروف هذا الزمن قد حرمتنا من بعضنا البعض، مذ كان مار قرياقس الربان الحكيم الماهر يقود سفينتنا، ذاك الذي ينعم بالإقامة مع القديسين منتظراً مجازاة عادلة من الله لأعماله، لكي يُميَّز بسببها في يوم الدين لمتعة مشاهدة الثالوث الأقدس مع الأبرار الذين سبقوه.

فلم نستحسن إهمال تلك القيادة والالتزام بأخرى مهما كانت، فإن خليفة ذاك ومثبت الكنيسة المقدسة الذي يستحق هذه القيادة أكثر من الكل بشهادة الجميع، هو الذي ينتخب من قبلنا بفعل الروح القدس.

لما رحل موسى ودفن بيد الله، واختطف إيليا إلى السماء بمركبة، رأى الله أن يقيم خلفاء لهما لنسل يعقوب أي إسرائيل المعروف، ولكيما يقسم أرض الميعاد

للأسباط الإثني عشر بدقة وبحسب الأسهم، ويبيد بمعجزة كثرة الكنعانيين، وأمر بالالتزام بكل ما هو شرعي وأقات الشعب السجين (في البرية) بخبز من السماء الذي كان يرمز حقيقة لا خيالاً، إلى جسد واحد من الثالوث، الله الكلمة، الذي يُكسر للمؤمنين.

هكذا رأينا أن الله قد سر حقاً باختيار الروح القدس للبطريرك مار ديونيسيوس الذي، إذ فشلت جميع محاولات انتخاب غيره أفلحت في انتخاب سيادته، نظراً إلى رزانته وخلقه وحسن تصرفه ونقاء سيرته وجهوده من أجل التعاليم الإلهية. فقد انتخبنا هذا بروح واحدة وبفعل الروح القدس، وبسابق توسطكم، وزكيناه ليكون رئيساً لكنيستنا نحن الأرثوذكس، وقد أقمنا احتفالاً بهيجاً مع أبناء الكنيسة القريبين من هنا،واتشحت الكنيسة بوشاح الغبطة والفرح. وإن هذا لدليل على أهمية الاتفاق وفاعليته الإيجابية.

فبمشاركتكم إيانا نعمة هذه البهجة، وإبداء خضوعكم التام كالأولين، وقبولكم رعاتكم بل سائر رعاة كنيسة الله، ومعانقتكم إياهم بكلتا الذراعين، ومراعاتكم حسن النظام في كل شيء تكونون قد أبرزتم هيبة مدينة الله على أحسن صورة، وصرتم قدوة حسنة للآخرين، لكي يقتدوا بكم عن طريق هذا الأب القديس وراعي الرعاة ورئيس الكل بعد المسيح الإله.

دعاؤنا إلى الله الأب الضابط الكل، الذي منحنا مثل هذه الموهبة العظمى والبركة التي بها وبواسطته نستطيع الدنو منه ونستحق النعم غير الزائلة والحياة غير الفانية.

بنعمة ابنه الوحيد ربنا يسوع المسيح وروحه القدس من أجل مجده آمين.

وقد ذيل بتوقيع جميع الأساقفة.

ملحق رقم 2

حول تسمية السريان وسوريا

بقلم: البطريرك ديونيسيوس التلمحري

كثيراً ما نستعمل كلمة سوريا عندما نتحدث عن الغرب، وعبارة الهلال الخصيب وبين النهرين لدى ذكرنا الجزيرة. غير أننا لاحظنا أن البسطاء لا يفعلون هذا، لكنهم يدعون منطقة ما بين النهرين سوريا رسمياً، ويسمون سكان غربي الفرات سوريين استعارياً. وهنا نقول: إن سوريا اسم جنس وهو نوعان، فإن اسم السوريين يطلق رسمياً على الذين يقطنون منطقة غربي الفرات الممتدة من جبل أمنون الواقع شمال أنطاكية حتى حدود فلسطين جنوباً، ومن البحر حتى نهر الفرات عرضاً. ترى لماذا سميت سوريا؟

نقول: في فترة اغتراب بني إسرائيل في مصر، وُجد شقيقان في هذه المنطقة، يدعى أحدهما سورس والآخر قيليكس، وتخاصما حباً بالزعامة، فذهب قيليكس مع جيشه إلى المنطقة التي هي ضمن جبل أمنون المعروف اليوم بالجبل الأسود، حيث أقام له مُلكاً وسميت المنطقة باسمه قيليقية. أما سورس فسيطر على منطقة غربي الفرات فدعيت باسمه سوريا. وانقسمت فيها بعد إلى عدة دويلات[1].

(1) طبعاً هذه أسطورة لا أساس تاريخي أو آثاري يدعمها.

لقد ذكرت هذا لأن البعض يدعون عدم قيام ملك من السريان. ومن جهة أخرى فإن بني إسرائيل دخلوا أرض الميعاد وأسسوا مملكة خاصة كما أسس أهل صور[1] مملكة خاصة أيضاً. كما دعي ملوك الآراميين الذين حكموا دمشق، سرياناً.

ونجد في الترجمة السبعينية ما يلي:... جمع بنهدد ملك سوريا جيشه وصعد إلى السامرة (سفر الملوك). وكذلك قال جند ملك سوريا له إن إله إسرائيل هو إله جبال وليس إله أودية، وقال ملك إسرائيل لجنده ألا تعلمون أن راموث جلعاد هي لنا ونحن ساكتون عن إعادتها من يدي ملك سوريا.

فالساكنون غربي الفرات هم سريان رسمياً، ويسمون سوريين من باب الاستعارة. وهم يتكلمون اللغة الآرامية سواء الذين هم في غربي الفرات أم في شرقيه أي في المنطقة الممتدة من البحر وحتى فارس، حيث قام ملوك كثيرون. ففي الرها قام ملوك من آل أبجر[2]، وحكم آل سنطروق[3] في مدينة نطيرا[4] في أرض العرب، وحكم آل نينوس في نينوى، وحكم آل نبوخذنصر في بابل، ذاك الذي تكلم بالآرامية لدى الحديث عن حلم التمثال وتفسيره. ونورد هذا لنؤكد أن السريان هم

---

(1) المقصود هنا الفينيقيين.

(2) أبجر ملك الأسروينيين في الرها كان عربياً.

(3) هناك أكثر من ملك دعي باسم سنطروق في مملكة الحضر أو الحظر (حطرا بالسريانية) حسب النقوش التي عثر عليها في المدينة، وأطلق سنطروق على نفسه اسم ملك العرب.

(4) النظيرة هي نفسها نطيرا في السريانية، وهي حسب الأسطورة فقد دعيت ابنة سنطروق أو الساطرون النظيرة، حسب المصادر العربية الإسلامية، وقد خانت أبوها وفتحت المدينة لملك الفرس سابور الذي كان يحاصرها.. ومملكة الحضر أو مملكة عربايا (العرب وفق صيغة الجمع السريانية) هي أقدم الممالك العربية في الهلال الخصيب وتحديداً في السهل الشمالي الغربي من وادي الرافدين الذي هو غرب العراق وشرق سوريا حالياً، تمركزت مملكة الحضر في مدينة الحضر التي تقع إلى الجنوب الغربي من مدينة الموصل على مسافة 110 كيلومتراً. وتبعد عن مدينة آشور القديمة حوالي 70 كيلومتراً. ظهرت مملكة الحضر في القرن الثاني الميلادي وحكمها أربعة ملوك استمر حكمهم قرابة المائة عام.

حقيقة سكان منطقة الغرب وأبناء الجزيرة أي ما بين النهرين، الذين يسكنون شرقي نهر الفرات، وأن أصل اللغة السريانية وأساسها هي مدينة الرها.



ملحق رقم 3

مأساة مدينة عمورية

كما رواها البطريرك التلمحري

لقد سئم الكثيرون من أتباع بابك الخرّمي والقائد نصر بن شبث من محاربة الفرس، ففروا إلى بلاد الروم وتنصروا على يد الملك ثاوفيل الذي توهم، بعد استسلام هؤلاء، بأنه سيقهر المسلمين بهم، فأرسل يطلب الضرائب من أرمينيا الكبرى[1] مهدداً بخرابها في حالة الرفض.

وإذ لم يكن لهم جيش، استعملوا الحكمة وأدوا الضريبة، فظن ثاوفيل بأن الأمور تسير بحسب هواه.

الهجوم على زبطرة

وفي صيف 1148 [837م] خرج ثاوفيل ثانية على زبطرة، التي كان البرابرة من أتباع بابك الخرّمي ونصر بن شبث الفارين إليه، قد فتكوا بمن فيها من المسلمين واليهود لدى استيلائهم عليها. وبلغ بهم الخبث إلى هتك النساء وشق بطونهن.

(1) يفترض أن أرمينيا الكبرى التي يحدها من الشرق نهر الفرات ومن الجنوب بلاد الجزيرة وصولاً إلى البحر السود وجبال القوقاز كانت تحت سلطة الخلافة العباسية.

وبعد أن سبوا المدينة وأحرقوها، اتجهوا صوب ملطية[1] وفعلوا الشيء نفسه وأرسلو السبايا إلى بلاد الروم. ثم اجتازوا إلى هنزيط[2] ومنطقة ارشميشاط[3] وحاصروا المدينة، فخاف المسلمون المقيمون فيها بعد سماعهم بدمار زبطرة، ورأوا إما أن يتركوا المدينة أو يدفعوا الجزية للروم، لأن الفرس[4] لم ينجدوهم لانهماكهم في محاربة بابك.

وبسبب مهاجمة الروم للمسلمين، ضيقوا علينا كثيراً وكادوا يقضون علينا لولا أن سمعوا أن الروم نهبوا مسيحيي زبطرة. أما مسيحيي الرها فشددوا الخناق عليهم بسبب رهاوي وقح يدعى شومنا، تبع الروم وحثهم على إبادة المسلمين.

وفيما كان الروم محاصرين أرشميشاط، اتفق العرب من آل ربيعة مع أهل ملطية على محاربتهم، لكنهم هزموا وسقط منهم نحو أربعة آلاف قتيل، فأحرق الروم أرشميشاط ودمروها، واجتازوا إلى منطقة أرمينيا وأعملوا فيها سبياً وحرقاً، ثم عادوا وعسكروا بالقرب من ملطية.

---

(1) مَلَطْية حالياً مدينة في تركيا تقع قرب نهر الفرات.

(2) جاء في معجم البلدان لياقوت الحموي مادة هنزيط: بالكسر ثم السكون، وزاي ثم ياء، وطاء مهملة: من الثغور الرومية، ذكره أبو فراس فقال:

وراحت في سمنين غارة خيله ... وقد باكرت هنزيط منها بواكر

وذكرها المتنبي أيضا فقال:

عصفن بهم يوم اللقان وسقنهم ... بهنزيط حتى ابيض بالسبي آمد

وهنزيط في الإقليم الخامس، طولها إحدى وسبعون درجة وثلثان، وعرضها تسع وثلاثون درجة ونصف وربع.

(3) تعرف في المصادر العربية باسم سميساط وهي مدينة قديمة تقع غربي نهر الفرات جنوبي ملطية وشرقي مرعش عندما ينعطف نهر الفرات إلى الغرب. كانت من الثغور الجزرية ومنها تخرج الجيوش الإسلامية إلى بلاد الروم. ينتمي إليها لقيانوس السميساطي الفيلسوف الساخر الشهير.

(4) يستخدم البطريرك التلمحري مصطلح الفرس للتعبير عن قوات العباسيين.

وهدد ثاوفيل أهلها بالتخريب والدمار كما فعل بزبطرة، ما لم يفتحوا أبوابها، وإن فعلوا كان لهم الأمان. فخرج إليه القاضي والزعماء وتحدثوا إليه بالحسنى وطلبوا أن يمهلهم فترة ووعدوه بإعطائهم له رهائن كدليل على عدم نصب كمائن في بلاده. وبعد أن قدموا له الهدايا وأسرى الروم الذين كانوا عندهم، رحل خشية أن تدركه قوات المسلمين.

لقد انزعج أبو إسحاق من تصرفات الروم، فأرسل إليهم عجيف بن عنبسة[1] على رأس أربعة آلاف شخص، لكن الروم تغلبوا ودمروا جيشه، ونجا مع قلة، ثم قاد جيشاً آخر ودخل في الشتاء وسبى الشعب ونهب الماشية والخيول وعاد.

ولما وصلوا إلى مناطقنا قطعوا الطرق كالأعداء وسلبوا كل من صادفوه. أما بابك الخرَّمي فبعد أن شعر بضعف حزبه، حمل ما استطاع من الأموال ودفن البقية في الأرض وهرب مع تسعة من رجاله إلى بلاد الروم، فوصلوا إلى قرية أحد القادة يدعى اسطيفان في أرمينيا، فتظاهر بالترحيب به وأدخله إلى بيته وأوثقه بالأصفاد وأخبر الخليفة أبا إسحاق الذي فرح جداً بإلقاء القبض على عدوه الذي أباد مئة ألف، وأرسل هدايا إلى اسطيفان وطلب أن يساق إليه بابك فاستجاب.

فأمر أولاً ببتر ذراعه اليمنى ثم اليسرى. ثم بتر طرفيه وأخيراً قطع رأسه وعلقه على خشبة وأعطى أمواله ومركزه للأفشين. وبعد فترة اكتشف الأفشين ما كان قد دفنه بابك من أموال. ونظر إلى توفر الأموال لديه، فتمرد هو الآخر.

---

(1) عجيف بن عنبسة من أشهر قادة المأمون والمعتصم، يبدو أنه من أصل عربي ولكن لا معلومات كافية عنه في كتب التراجم.

مذنَّب

في عام 1149 [838م] ظهر مذنب في الجهتين الشمالية والجنوبية وامتدت أشعته إلى الغرب ودام 16 يوماً. وكان يظهر من الفجر حتى اختفاء نور الشمس[1].

وكان لأبي إسحاق خليفة المسلمين ولد يدعى داود يكره المسيحيين، وبتأثيره أصدر والده قراراً بمنع وضع صليب خارج الكنائس أو دق النواقيس ورفع الأصوات أثناء الصلاة أو في الطريق خلال تشييع الجنازة، وحرم وجود خمر في المدن أو في الطرقات. فغدا الناس فريسة للعَمَلة الذين كانوا يتعاملون بهذا القرار بقدر ما يُدفع لهم.

لما رأى أبو اسحق خليفة المسلمين أن الأمور في بلاد الروم لا تسير بحسب رغبته، استاء وقال: لقد أخطأنا بدخولنا هنا. فلما همَّ بالخروج، قال له كاتبه أحمد، لا يجدر بملك مثلك أن يترك المنطقة دون أن يجني فائدة ما، فإن مدينة عمورية[2] ليست بعيدة عنا، لنذهب ونحتلها.

فأخذ بمشورته مثل احتوفيل، فلما رأى الخليفة تحصيناتها، أقام حولها تلالاً ترابية، وأخذوا يقذفون المدينة من الخارج بحجارة المنجنيقات، وظللوا الشمس بسهام أقواسهم وهم يرشقون الذين على السور، في حين أقام آخرون خيماً مغطاة

---

(1) هذا هو المذنب الذي ذكره أبو تمام في قصيدته فتح عمورية:

وخَوَّفُوا النـاسَ مِنْ دَهْيَاءَ مُظْلِمَةٍ   إذَا بَـدَا الكَوْكَـبُ الْغَرْبِـيُّ ذُو الذَّنَـبِ

(2) عمورية (باليونانية: Ἀμόριον) ويرد اسمها في المصادر السريانية أمورين كانت مدينة في فريجيا في آسيا الصغرى تأسست في الفترة الهلينية، وازدهرت في عهد الإمبراطورية البيزنطية. وأصبحت مهجورة بعد هجوم الخليفة العباسي المعتصم عليها عام 838. بقاياها تقع بالقرب من قرية حصار كوي في محافظة أفيون قرة حصار بتركيا. ومن أشهر أبنائها إيسوب (620 ق.م. – 560 ق.م.) صاحب حكايات إيسوب الشهيرة. ومنها انحدرت الأسرة الفريجية من أباطرة الإمبراطورية البيزنطية.

بالجلود لحماية الذين كانوا يحفرون أنفاقاً تحت السور. أما الذين في الداخل، فكانوا يقاتلون بالسهام واللبن والعرادات[1]، ويرشقون الذين يقتربون من السور بالحصى ليبعدوهم، حتى صاروا وكأن سحابة من الرمل والرماد تغطيهم.

وقد قتل من كلا الجانبيين ثلاثة آلاف شخص خلال ثلاثة أيام من القتال، وأخيراً اهتدوا إلى بقعة متخلخلة في السور، فصوبوا إليها المجانيق والعرادات حتى انهارت بعد عدة أيام من قذف الحجارة، فناح الذين في الداخل، وانشرح الذين في الخارج.

فاجتمع المقاتلون حول الثلمة، وارتفع عدد الجثث بحيث حالت دون دخولها الذين في الخارج، فانزعج أبو إسحاق وجمع جنده وعبيده الأتراك الذين وضعهم في المقدمة يتبعهم الجيش، وأمر بقتل كل من يهرب.

فطلب الروم أن يلتقوا به، فأذن لهم، فجاء الأسقف وثلاثة زعماء وطلبوا الرحيل عن المدينة، فقسا قلبه ولم يوافق، فلما هموا بالرجوع، التفت إليه واحد من الزعماء يدعى جودين ووعده بتسليم المدينة بالحيلة، فرحب الخليفة بالفكرة وأعطاه عشرة آلاف درهم، فأعطاهم كلمة السر حيث قال: عندما أقف على السور وأرفع قبعتي من رأسي، اعلموا أني نحيَّت المقاتلين عن الثلمة، فتقدموا وادخلوا.

لدى رؤيته جودين يعود إلى الخليفة، أدرك الأسقف أنه سيسلم إليه المدينة، فأخبر أهل المدينة بذلك، فاتجه بعضهم صوب الكنيسة وهتفوا: يا رب ارحم، وآخرون هتفوا وهم في بيوتهم، وغيرهم نزلوا إلى الآبار والجباب، واحتضنت النساء أولادهن كالدجاجة كي لا يفارقوهن سواء إلى السيف أم إلى العبودية. وأخذت

---

(1) آلة حربية أصغر من المنجنيق.

سيوف المسلمين تعبث فساداً وتكوّم أكداساً أكداساً من الجثث. وبعد أن ارتوى سيفهم من الدم، صدر أمر بالتوقف عن القتل والشروع بإخراج الناس ونهب المدينة، ثم دخل الخليفة المدينة وانبهر لجمال الأبنية والشوارع، لكنه انزعج من نبأ بلغه، فأضرم فيها النار وأحرقها. وكانت تزخر بأديرة النساء، وسبيت أكثر من ألف راهبة إلى جانب اللواتي قتلن واللواتي أُعطين للجنود الأتراك والماديين لإذلالهن... المجد للأحكام غير المدركة.

لقد أحترق جميع الذين كانوا مختبئين في البيوت وقلالي الكنائس. ثم جمعت غنائم المدينة في مكان واحد، ورأى الخليفة أن الناس ما زالوا كثرة، فقتل أربعة آلاف رجل آخرين، واختطفت كافة الأواني الذهبية والفضية والنحاسية، بل خطف الجند الناس أيضاً، فارتفع عويل وبكاء الرجال والنساء والأطفال الذين كانوا يختطفون من أيدي آبائهم.

فلما سمع الخليفة صوت العويل، تأثر لأنه لم يأمر باختطاف الناس، فنهض غاضباً وقتل بيده ثلاثة رجال لاقاهم وهم يصطحبون عبيداً، وأمر بإعادة الناس إلى حيث كانوا مجتمعين. فأعطى بعضهم لقواته و البعض الآخر لرؤساء جيش الأتراك، ولحاشيته وباع بعضهم للتجار، حيث كانت تباع العائلة جملة دون التمييز بين الأبناء والآباء[1].

---

(1) من الواضح أن هذه الرواية لفتح عمورية بالإضافة إلى رواية الطبري في تاريخه لا تذكر قصة وامعتصماه الشهيرة، ولكن ثمة إشارة للشاعر أبو تمام في قصيدته فتح عمورية حين يقول:

تدبير معتصم بالله منتقم ... لله مرتقب في الله مرتغب

لبيّت صوتًا زِبَطريًا هَرَقْتَ لَهُ ... كَأْسَ الْكَرَى وَرُضَابَ الْخُرَّدِ الْعُرُب

وإشارة أبي تمام هذه أكدها الطبري الذي كتب عن هجوم توفيل بن ميخائيل صاحب الروم على زبطرة، وكيف أوقع بأهلها المسلمين فأسرهم وخرب بلدهم، ومضى من فوره إلى ملطية فأغار على أهلها وعلى أهل حصون المسلمين إلى غير ذلك وسبا من المسلمات فيما قيل أكثر من ألف امرأة ومثل بمن صار في يده من

تم خراب عمورية في 6 تموز عام 1149 [838م]، وفيها اضمحلت المملكتان، مملكة الروم بسبب ما أدركهم من نكبات، ومملكة العرب الذين زعموا، إنهم عرفوا عن طريق السحر، بأن مملكتهم ستزول يوم يفتحون مدينة عمورية الحصينة، إذ لم يستطع أحد احتلالها قبل أبي إسحاق الذي فتحها خلال 12 يوماً، ووجد فيها شعباً كثيراً وأموالاً طائلة هي أموال المدن المجاورة المخزونة فيها. على هذه الصورة كانت نهايتهم.

مؤامرة العباس

بعد احتلاله عمورية وتدميرها حرقاً، علم أبو إسحاق أن ابن أخيه العباس ينوي قتله، فقبض على كاتبه وطبيبه النسطوري، فكشفا له مؤامرة العباس والمشتركين معه، وفضحا أيضاً تواطؤه مع ثاوفيل ملك الروم، والشرط الذي وضعه على أهل بغداد، ومفاده أن ينادوا في الشوارع والمساجد بالعباس خليفة فور سماعهم بمقتل أبي إسحاق.

وأمر الخليفة المعتصم بالقبض على العباس والقائد عجيف بن عنبسة[1] وكبلهما ووضعهما على الجمال وغادر عمورية التي لم ينج منها سوى نز يسير، واصطحب معه البطريق أطيس والوالي وجودين الذي سلمه المدينة، وعاد فخوراً إلى بلاده.

المسلمين وسمل أعينهم وقطع آذانهم وآنافهم. وهو ما اعتبره أبو تمام سبباً لفتح عمورية. ولعل البيت الأخير هو الذي ألهم إخباريي ومؤرخي العصر المملوكي المتأخر كالقلقشندي وابن العماد الحنبلي وابن خلدون للحديث عن وامعتصماه وإنقاذ المرأة الهاشمية، وأنه كان يحتسي كأساً عندما بلغه الخبر.

(1) يقول الطبري في تاريخه أن عجيف هو أصل المؤامرة التي تورط العباس بن المأمون ضد عمه، وأنه كان المحرك للمؤامرة التي بلغت مبلغاً عظيماً، وكادت أن تنجح لولا تردد العباس أكثر من مرة في قتل عمه المعتصم وتلكؤه، وبأنه مات في قرية باعيناثا شمالي مدينة بلد القريبة من الموصل.

في حين توفي العباس في منبج[1] تحت تأثير العذاب والجوع[2] وجه الخليفة رسالة عامة جاء فيها: ليطلع الجميع، أن العباس بن المأمون ظهر عدواً لمملكتنا وإنه كان يهيئ لتسليم معسكر المسلمين للروم، فيجب على الجميع أن يلعنوه.

(1) منبج مدينة عريقة قرب الفرات وشرقي حلب، اسمها في الحقبة الرومانية هيرا بوليس وكانت مركزاً دينياً وثنياً للعرب والآراميين، ووضع لوقيانوس السميساطي كتاب الإلهة السورية عنها.

(2) يذكر الطبري أن المعتصم أمر بلعن العباس وأنه مات في منبج خلال رحلة العودة إلى سامراء، بعد أن قدم له طعاماً كثيراً بعد جوع ومنع عنه الماء.

ملحق رقم 4

قصيدة فتح عمورية

للشاعر حبيب بن أوس الطائي أبو تمام

السَّيْفُ أَصْدَقُ إِنْبَاءً مِنَ الكُتُبِ … فِي حَدِهِ الحَدُّ بَينَ الجِدِّ واللَّعِبِ

بِيضُ الصَّفَائحِ لاَ سُودُ الصَّحَائفِ في … مُتُونِهِنَّ جلاءُ الشَّك والرِيَبِ

والعِلْمُ في شُهُبِ الأَرْمَاحِ لاَمِعَةً … بَيْنَ الخَمِيسَيْنِ لافي السَّبْعَة الشُّهُبِ

أَيْنَ الروايَةُ بَلْ أَيْنَ النُّجُومُ وَمَا … صَاغُوه مِنْ زُخْرُفٍ فيها ومِنْ كَذِبِ

تخرُّصاً وأحاديثاً ملفّقةً … لَيْسَتْ بِنَبْعٍ إِذَا عُدَّتْ ولاغَرَبِ

عجائباً زعموا الأيَّامَ مُجْفلةً … عَنْهُنَّ في صَفَرِ الأَصْفَار أَوْ رَجَبِ

وخَوَّفُوا الناسَ مِنْ دَهْيَاءَ مُظْلِمَةٍ … إذا بدا الكوكبُ الغربيُّ ذو الذَّنبِ

وصيَّروا الأبرجَ العُلْيا مُرتَّبةً … مَا كَانَ مُنْقَلِباً أَوْ غيرَ مُنْقَلِبِ

يقضون بالأمر عنها وهي غافلة … ما دار في فلك منها وفي قُطُبِ

لو بيّنت قطّ أمراً قبل موقعه … لم تُخْفِ ماحلَّ بالأوثان والصلُبِ

فَتْحُ الفُتوح تَعَالَى أَنْ يُحيطَ بِهِ … نَظْمٌ مِن الشعْرِ أَوْ نَثْرٌ مِنَ الخُطَبِ

فتحٌ تفتَّحُ أبوابُ السَّماءِ لهُ … وتبرزُ الأرضُ في أثوابها القُشُبِ

يَا يَوْمَ وَقْعَةِ عَمُّوريَّةَ انْصَرَفَتْ … منكَ المُنى حُفَّلاً معسولةَ الحلبِ

أبقيْتَ جدَّ بني الإسلام في صعدٍ … والمُشْركينَ ودَارَ الشرْكِ في صَبَبِ

أُمٌّ لَهُمْ لَوْ رَجَوْا أَن تُفْتَدى جَعَلُوا فداءها كلَّ أمٍّ منهمُ وأبِ
وبرزة الوجهِ قد أعيتْ رياضتُهَا كِسْرَى وصدَّتْ صُدُوداً عَنْ أَبِي كَرِبِ
بِكْرٌ فَما افْتَرَعَتْهَا كَفُّ حَادِثَةٍ ولا ترقَّتْ إليها همَّةُ النُّوبِ
مِنْ عَهْدِ إِسْكَنْدَرٍ أَوْ قَبلَ ذَلِكَ قَدْ شابتْ نواصي اللَّيالي وهيَ لمْ تشبِ
حَتَّى إِذَا مَخَّضَ اللهُ السنين لَهَا مَخْضَ البخِيلَة كانَتْ زُبْدَةَ الحِقَبِ
أتتهُمُ الكُربةُ السَّوداءُ سادرةً منها وكان اسمها فرَّاجةَ الكُربِ
جرى لها الفالُ برحاً يومَ أنقرة إذْ غودرتْ وحشةَ الساحاتِ والرِّحبِ
لَمَّا رَأَتْ أُخْتَها بالأمسِ قَدْ خَرِبَتْ كَانَ الخَرَابُ لَهَا أَعْدَى من الجَرَبِ
كمْ بينَ حِيطانها من فارسٍ بطلٍ قاني الذّوائب من آني دم سربِ
بسُنَّة السَّيفِ والخطيِّ منْ دمه لاسُنَّة الدين وَالإِسْلاَمِ مُخْتَضِبِ
لقد تركتَ أميرَ المؤمنينَ بها للنَّارِ يوماً ذليلَ الصَّخرِ والخشبِ
غادرتَ فيها بهيمَ اللَّيلِ وهوَ ضُحىً يَشُلُّهُ وَسْطَهَا صُبْحٌ مِنَ اللَّهَبِ
حتَّى كأنَّ جلابيبَ الدُّجى رغبتْ عَنْ لَوْنِهَا وكَأَنَّ الشَّمْسَ لَمْ تَغِبِ
ضوءٌ منَ النَّارِ والظَّلماءُ عاكفةٌ وظُلمةٌ منَ دخان في ضُحىً شحبِ
فالشَّمْسُ طَالِعَةٌ مِنْ ذَا وقدْ أَفَلَتْ والشَّمسُ واجبةٌ منْ ذا ولمْ تجبِ
تصرَّحَ الدَّهرُ تصريحَ الغمام لها عنْ يوم هيجاءَ منها طاهرٍ جُنُبِ
لم تَطْلُعِ الشَّمْسُ فيهِ يَومَ ذَاكَ على بانٍ بأهلٍ وَلَمْ تَغْرُبْ على عَزَبِ
ما ربعُ ميَّةَ معموراً يطيفُ بهِ غَيْلاَنُ أَبْهَى رُبىً مِنْ رَبْعِهَا الخَرِبِ
ولا الخُدُودُ وقدْ أُدْمينَ مِنْ خجَلٍ أشهى إلى ناظِرِي مِنْ خَدها التَّرِبِ
سَماجَةً غنِيَتْ مِنَّا العُيون بها عنْ كلِّ حُسْنٍ بدا أوْ منظر عجبِ
وحُسْنُ مُنْقَلَبٍ تبقى عَوَاقِبُهُ جاءتْ بشاشتهُ منْ سوءِ منقلبِ
لوْ يعلمُ الكفرُ كمْ منْ أعصرٍ كمنتْ لَهُ العَوَاقِبُ بَيْنَ السُّمْرِ والقُضُبِ
تَدْبيرُ مُعْتَصِمٍ بِاللهِ مُنْتَقِمٍ لله مرتقبٍ في الله مُرتغبِ

ومُطعَم النَّصرِ لَمْ تَكْهَمْ أَسِنَّتُهُ   يوماً ولاَ حُجبتْ عنْ روح محتجبِ

لَمْ يَغْزُ قَوْماً، ولَمْ يَنْهَدْ إِلَى بَلَدٍ   إلاَّ تقدَّمهُ جيشٌ من الرَّعبِ

لوْ لمْ يقدْ جحفلاً، يومَ الوغى، لغدا   منْ نفسهِ، وحدها، في جحفلٍ لجبِ

رمى بكَ اللهُ بُرْجَيْها فهدَّمها   ولوْ رمى بكَ غيرُ اللهِ لمْ يصبِ

مِنْ بَعْدِ ما أَشَّبُوها واثقينَ بهَا   واللهُ مفتاحُ باب المعقل الأشبِ

وقال ذُو أَمْرِهِمْ لا مَرْتَعٌ صَدَدٌ   للسارحينَ وليسَ الوردُ منْ كثبِ

أمانياً سلبتهمْ نجحَ هاجسها   ظُبَى السيوفِ وأطراف القنا السُّلُبِ

إنَّ الحمامينِ منْ بيضٍ ومنْ سُمُرٍ   دَلْوَا الحياتين مِن مَاءٍ ومن عُشُبِ

لَبَّيْتَ صَوْتاً زِبَطْرِيّاً هَرَقْتَ لَهُ   كأسَ الكرى ورُضابَ الخُرَّدِ العُرُبِ

عداك حرُّ الثغورِ المستضامة عنْ   بردِ الثُّغور وعنْ سلسالها الحصبِ

أجبتهُ مُعلناً بالسَّيفِ مُنصَلتاً   وَلَوْ أَجَبْتَ بِغَيْرِ السَّيْفِ لَمْ تُجِبِ

حتّى تَرَكْتَ عَمود الشرْكِ مُنْعَفِراً   ولم تُعرِّجْ على الأوتادِ والطُّنُبِ

لَمَّا رأى الحربَ رأْيَ العينِ تُوفلِسٌ   والحَرْبُ مَشْتَقَّةُ المَعْنَى مِنَ الحَرَبِ

غَدَا يُصَرِّفُ بالأَمْوال جِرْيَتَهَا   فَعَزَّهُ البَحْرُ ذُو التَّيارِ والحَدَبِ

هَيْهَاتَ! زُعْزِعَتِ الأَرْضُ الوَقُورُ بِهِ   عن غزْوِ مُحْتَسِبٍ لا غزْوِ مُكتسبِ

لمْ يُنفقِ الذهبَ المُربي بكثرتهِ   على الحصى وبهِ فقْرٌ إلى الذَّهبِ

إنَّ الأُسُودَ أسودَ الغيلِ همَّتُها   يومَ الكريهة في المسلوب لا السَّلبِ

وَلَّى، وَقَدْ أَلْجَمَ الخطيُّ مَنْطِقَهُ   بِسَكْتَة تَحْتَهَا الأَحْشَاءُ في صخَبِ

أَحْذَى قَرَابينه صَرْفَ الرَّدَى ومَضى   يَحْتَثُّ أَنْجى مَطَايَاهُ مِن الهَرَبِ

موكّلاً بيفاع الأرضِ يُشرفهُ   مِنْ خِفّة الخَوْفِ لا مِنْ خِفَّة الطرَبِ

إنْ يَعْدُ مِنْ حَرهَا عَدْوَ الظَّلِيم، فَقَدْ   أوسعتَ جاحمها منْ كثرة الحطبِ

تِسْعُونَ أَلْفاً كآسادِ الشَّرَى نَضِجَتْ   جُلُودُهُمْ قَبْلَ نُضْجِ التينِ والعِنَبِ

يا رُبَّ حوباءَ لَمَّا اجتثَّ دابرهمْ   طابَتْ ولَوْ ضُمخَتْ بالمِسْكِ لم تَطِبِ

ومُغْضَبٍ رَجَعَتْ بِيضُ السُّيُوفِ بِهِ   حيَّ الرِّضا منْ رداهمْ ميِّتَ الغضبِ

والحَرْبُ قائمَةٌ في مأْزِقٍ لَجِجٍ   تجْثُو القيامُ بهِ صُغراً على الرُّكبِ

كمْ نيلَ تحتَ سناها من سنا قمرٍ   وتَحْتَ عارِضِها مِنْ عَارِضٍ شَنِبِ

كمْ كان في قطع أسباب الرِّقاب بها   إلى المخدَّرة العذراءِ منَ سببِ

كَمْ أَحْرَزَتْ قُضُبُ الهنْدِي مُصْلَتَةً   تهتزُّ منْ قُضُبٍ تهتزُّ في كُثُبِ

بيضٌ، إذا انتُضيتْ من حُجبها، رجعتْ   أحقُّ بالبيض أتراباً منَ الحُجُبِ

خَليفَةَ اللهِ جازَى اللهُ سَعْيَكَ عَنْ   جُرْثُومَةِ الدينِ والإسْلاَمِ والحَسَبِ

بصُرْتَ بالرَّاحةِ الكُبرى فلمْ ترها   تُنالُ إلاَّ على جسرٍ منَ التَّعبِ

إن كان بينَ صُرُوفِ الدَّهرِ من رحمٍ   موصولة أوْ ذمامٍ غيرِ مُنقضبِ

فبَيْنَ أيَّامِكَ اللاَّتي نُصِرْتَ بِها   وبَيْنَ أيَّام بَدْر أَقْرَبُ النَّسَبِ

أَبْقَتْ بَني الأصْفَرِ المِمْرَاضِ كاسِمِهِمْ   صُفْرَ الوجُوهِ وجلَّتْ أَوْجُهَ العَرَبِ

الملحق رقم 5

رحلة برنار الحكيم عام 867 م

منشورة في كتاب:

EARLY TRAVELS
IN
PALESTINE,

COMPRISING THE NARRATIVES OF
ARCULF, WILLIBALD, BERNARD, SÆWULF, SIGURD,
BENJAMIN OF TUDELA, SIR JOHN MAUNDEVILLE,
DE LA BROCQUIÈRE, AND MAUNDRELL.

EDITED, WITH NOTES,

BY THOMAS WRIGHT, ESQ., M.A., F.S.A., &c.

LONDON:

HENRY G. BOHN, YORK STREET, COVENT GARDEN.

MDCCCXLVIII

في سنة 876 من تجسد سيدنا يسوع المسيح، باسم الرب انضممنا إلى بعضنا نحن الراغبين في زيارة الأماكن المقدسة، أنا برنار ورفيقيّ الأخوين الراهبين ثيوديموند من دير القديس سانت فانسنت في بينيفينتوم[1]، وستيفن وهو إسباني. وقد ذهبنا معاً إلى روما للقاء البابا نيكولاس والحصول منه على إذن للسفر ولنيل بركته ومساعدته.

ومن ثم ذهبنا إلى جبل جارجانو[2]، حيث كنيسة القديس ميخائيل القابعة تحت صخرة واحدة، والتي تنمو فوقها أشجار البلوط. ويقال إن هذه الكنيسة كانت قد كرست من رئيس الملائكة نفسه[3].

مدخل الكنيسة من الشمال، ويمكن أن تتسع لستين شخصاً. وفي الداخل من الجهة الشرقية توجد صورة للملاك، وإلى الجنوب يوجد مذبح، ولا يتم وضع أية هبة فيه، ولكن هناك شيء معلق أمامه، إنها سفينة محملة بالهدايا، حيث يوجد بالقرب منها مذابح أخرى أيضاً.

---

(1) تسمى الآن بينيفينتو وهي مقاطعة في الجنوب الإيطالي.

(2) يقع جبل جارجانو في جنوبي إيطاليا على شاطئ البحر الأدرياتيكي (المحقق).

(3) حسب الأسطورة فقد ظهر كبير الملائكة ميخائيل لأسقف سيبونتوم (Sipontum)عام 490 م قرب الكهف وقال له بأن يكرسه كنيسة للمسيحيين واعداً بحمايتها من الوثنيين المجاورين. (المحقق)

رئيس الدير يدعى بينيغناتوس، ويرأس العديد من الأخوة الرهبان.

بعد مغادرتنا جبل جارجانو، قطعنا مئة وخمسين ميلاً لنصل إلى مدينة فتحها المسلمون وتخضع لسلطتهم تدعى باري[1]، كانت في السابق تخضع لبينيفينتوم، مشرفة من جهة الشمال على البحر ومحصنة من الجنوب بجدارين كبيرين جداً.

هنا حصلنا من أمير المدينة، والذي يدعى السلطان[2] على الترتيبات اللازمة لرحلتنا، مع رسالتين تمثل كل واحدة منهما جواز المرور لنا وأوصافنا والهدف من رحلتنا؛ موجهتان إلى أمير الإسكندرية وأمير بلاد بابيلون [الفسطاط][3]، وهذان الأميران كانا يحكمان تحت ولاية أمير المؤمنين [الخليفة] الذي يحكم كل بلاد العرب والمسلمين، ويقيم في بغداد واكسناري (Axinarri)[4]، وهما واقعتان بعيداً عن القدس.

تقدمنا من باري إلى ميناء تارانتوم[5] على بعد 90 ميلاً، حيث وجدنا ست سفن على متنها تسعة آلاف أسير من مسيحيي بينيفينتوم؛ كان هناك ثلاثة آلاف أسير على متن السفينتين اللتين أبحرتا أولا متجهتين إلى إفريقية، وأخريان تبعتاهما باتجاه

---

(1) فتح العرب المسلمون باري وأقاموا فيها منذ مطلع القرن التاسع وكانت تعد مقراً رئيساً لهم على الساحل الإيطالي، وقد تسببت غزواتهم على أراضي بينيفينتوم بأن أعد الإمبراطور لويس الثاني حملة ضدهم، وقد استرد باري بعد حصار دام أربع سنوات، وعاد إلى بينيفينتوم في عام 871 م، بينما قام جنوده بحصار تارينتوم والتي لم يتم استرجاعها من العرب المسلمين حتى فترة متأخرة نوعا ما.

(2) على الأرجح السلطان المقصود هنا هو خفاجة بن سفيان الذي كان يقود قوات الأغالبة في إيطاليا خلا تلك الفترة. (المحقق)

(3) هذه بابيلون المصرية، أو الفسطاط، وهي القاهرة القديمة قبل أن يؤسسها جوهر الصقلي في العصر الفاطمي. (المحقق)

(4) من الواضح أن ثمة خطأ في الكتابة أو النسخ من قبل ناسخي الرحلة في العصور القديمة ولعل المقصود هو مدينة سامراء التي أصبحت عاصمة ثانية للخلافة العباسية في عهد المعتصم. (المحقق)

(5) تسمى الآن تارنتو (taranto) وهي ميناء يقع في أقصى جنوب إيطاليا. (المحقق)

تونس تحملان ثلاثة آلاف أسير، الاثنتان المتبقيتان تضمان العدد نفسه من الأسرى المسيحيين إلى ميناء الإسكندرية، حيث استغرقت رحلتنا معهما ثلاثين يوماً.

هنا [في الإسكندرية]، حظر علينا القبطان، الذي يعمل تحت أمرته ستين من البحارة، النزول قبل أن ننقده ستة دنانير ذهبية[1]، فأعطيناه إياها ونزلنا إلى المدينة.

بعد ذلك ذهبنا إلى أمير الإسكندرية وأظهرنا له الرسالة التي أعطاها لنا السلطان في باري، ولكنه مع ذلك لم يبد أي اهتمام، فكان يتعين على كل واحد منا دفع 13 ديناراً، ثم أعطانا رسائل لأمير الفسطاط.

من عادة هؤلاء الناس أن يأخذوا ما يسمح لهم بأخذه من ناحية الوزن، وهناك ستة سوليسات[2] وستة دنانير من أموالنا، ما يعادل ثلاثة دنانير وثلاثة سوليسات من أموالهم.

تقع مدينة الإسكندرية على شاطئ البحر، لقد عاش القديس مرقس هنا ووعظ بالإنجيل وتحمل كرامة الأسقفية، خارج البوابة الشرقية للمدينة دير القديس مرقس مع الكنيسة التي كان فيها ضريحه، لكن البنادقة حملوا جثمانه خلسة ونقلوه على متن سفينة إلى مدينتهم[3].

---

(1) العملة التي يذكرها برنار الحكيم هنا هي (aurei) وهي عملة ذهبية قديمة كانت تصدر منذ ما قبل الميلاد وحتى القرن الرابع الميلادي. (المحقق)

(2) sols عملة كانت مستخدمة أيام الرومان والبيزنطيين وفي عهد شارلمان، ويساوي 12 دينار. (المحقق)

(3) هذه الحادثة رواها أكثر من مؤرخ ويجري تحديدها على وجه تقريبي في عام 820م. (المحقق)

خارج البوابة الغربية ثمة دير يدعى دير القديسين الأربعين[1]، ويوجد فيه كما هو معتاد عدد من الرهبان.

يقع المرفأ إلى الشمال من المدينة، وإلى الجنوب من غيون أو كما يسمى النيل، حيث مياه مصر التي تجري وسط المدينة مفرغة نفسها في البحر عبر الميناء المذكور آنفا[2].

دخلنا النهر، وأبحرنا باتجاه الجنوب لمدة ستة أيام ووصلنا إلى مدينة بابيلون (الفسطاط) في مصر حيث كان يحكم فرعون ذات يوم، وحيث قام بأمر من يوسف الصديق ببناء مخازن الحبوب السبعة والتي ما تزال باقية.

عندما وصلنا إلى الشاطئ في بابيلون (الفسطاط) اقتادنا حراس المدينة إلى الأمير المسلم[3] الذي استفسر منا عن هدف رحلتنا، وطلب منا معرفة الأمراء الذين نحمل رسائل منهم، عندئذ أظهرنا له خطابات السلطان سالف الذكر، ورسائل أمير الإسكندرية. ولكن أحداً لم يحفل بذلك لأنه تم إرسالنا إلى السجن حيث بقينا ستة أيام. وبعد ذلك تشاورنا معاً ونلنا حريتنا بدفع المزيد من المال، ثم حصلنا منه على الرسائل التي تحمينا بشكل فعال من أي عمليات ابتزاز أخرى، لأنه كان يأتي من

(1) يبدو أن الحديث يدور عما يسمى الآن دير الزجاج، وهو يقع على مسافة تسعة أميال من مدينة الإسكندرية غرباً وفيه دفن أربعة من بطاركة الإسكندرية، ومن الواضح أنه أقيم على اسم القديسين الأربعين الذين قتلوا في سبسطية. (المحقق)

(2) لا يوجد الآن فرع للنيل يمر في الإسكندرية ويصب في مينائها، لكن ابن الجوزي في المنتظم يتحدث عن أن أحد فروع النيل السبعة يصب غربي الإسكندرية، لأن فرع الرشيد بعيد نسبياً عن المدينة. وحديث برنار الحكيم واضح ولا لبس فيه. ويبدو أن هذا الفرع الذي ذكره برنار الحكيم وابن الجوزي قد جف الآن. (المحقق)

(3) يفترض أن حاكم الفسطاط في تلك السنة هو مزاحم بن خاقان.. ولا نعرف كيف تحور الاسم إلى Adalhacham كما يرد في الرحلة. (المحقق)

حيث قوة الأوامر في الدرجة الثانية بعد أمير المؤمنين [الخليفة] سابق الذكر. وعلى الرغم من ذلك فإنه عندما دخلنا المدن المذكورة فيما سيأتي، لم يسمح لنا بمغادرتها قبل الحصول على ورقة عليها ختم، حيث ترتب علينا دفع دينار أو اثنين.

وفي هذه المدينة [الفسطاط] يقيم بطريرك اسمه ميخائيل[1]، يحكم الأساقفة والرهبان وسائر المسيحيين في جميع أنحاء مصر بفضل الله.

يتسامح المسلمون[2] مع هؤلاء المسيحيين بشرط دفع الجزية السنوية للأمير المذكور، ويعيشون في أمن وحرية. والجزية هي ثلاث قطع ذهبية أو اثنتان أو واحدة. وثلاثة عشرة ذهبية للشخص الأكثر شراسة، ومن لا يستطيع دفع تلك الجزية، سواء أكان مواطناً أصلياً أو غريباً، فإنه سيلقى في السجن إلى أن يخلصه الله أو بعض أخيار المسيحيين.

عدنا الآن عبر نهر النيل وأتينا إلى مدينة سينتهاي، ثم انتقلنا إلى المحلة، ثم أبحرنا عبر دمياط[3] الواقعة على شاطئ البحر في الشمال والتي يحيط بها النيل من جميع الأطراف باستثناء شريط صغير من اليابسة.

وبعدها أبحرنا إلى مدينة تنيس حيث المسيحيون هنا أتقياء جداً و مضيافون للغاية. لا يوجد في هذه المدينة أية أراض إلا تلك التي الموقوفة للكنائس، وهناك رأينا ميدان تانيس، حيث جثث الذين لقوا حتفهم في زمن موسى.

(1) هذا البطريرك هو ميخائيل الأول الذي حكم قسم الملكيين من الأقباط المسيحيين من 859 إلى 871 م، بينما كان بطريرك الأقباط الأرثوذكس في تلك الفترة البابا شنودة الأول. (المحقق)

(2) يستعمل مصطلح pagans أي الوثنيين للتعبير عن المسلمين. (المحقق)

(3) ترد في الرحلة باسم Sitinulh ونظنه خطأ في النسخ، والمحلة وردت Malla، وتنيس وردت Tamnis. (المحقق)

من تنيس ذهبنا إلى مدينة الفرما، حيث كنيسة القديسة ماري، وهنا في هذا المكان هرب القديس يوسف النجار مع الطفل [يسوع] وأمه [مريم] بتحذير من الملاك.

في هذه المدينة عدد وافر من الجمال، حيث يستأجر المسافرون جمال السكان الأصليين لحمل أمتعتهم عبر الصحراء، وهذه الرحلة تستغرق ستة أيام.

تبدأ الصحراء في هذه المدينة، والتي يمكن أيضا أن يطلق عليها اسم صحراء لعدم وجود أثر لعشب أو ثمار من أي نوع باستثناء أشجار النخيل.

هذه الصحراء بيضاء كسهل مغطى بالثلوج، وفي منتصف الطريق يوجد نزلان اثنان واحد يسمى البام والآخر البقارة[1]، حيث يتاجر المسلمين والمسيحيين بالأشياء التي يحتاجها المسافرين. إلا أن الأرض حولهم قاحلة كما هو الحال في بقية الصحراء.

بعد البقارة تصبح الأرض خصبة ويستمر ذلك إلى غزة، مدينة شمشون، وهي غنية جدا في كل شيء. ثم وصلنا إلى العريش[2]، ومن ثم ذهبنا إلى الرملة الواقعة بالقرب من دير القديس جرجس الشهيد حيث تسكن روحه.

وانطلقنا مسرعين من الرملة إلى قلعة عمواس، ومن ثم ذهبنا إلى مدينة القدس المقدسة، حيث استقبلنا في النزل المقام هناك من قبل الإمبراطور المجيد شارلمان[1]،

---

(1) Albam هناك نزل يدعى البعامة أو الثعامة يذكره فقط ابن خرداذبة وربما نسخ الاسم خطأ.. ثم ننزل البقّارة، وهو مذكور في كتب المسالك والممالك العائدة للعصر العباسي. (المحقق)

(2) Alariza من الواضح أن المقصود هنا العريش وهذا خطأ ناتج واضح لأن العريش تقع قبل غزة ولا بد أنه أسدود أو أشدود أ أزدود. كما ترد في المصادر الجغرافية والتاريخية العربية لتلك الفترة. (المحقق)

الذي يستقبل جميع الحجاج الذين يتحدثون اللغة اللاتينية حيث يجاورون الكنيسة المقامة تكريماً للقديسة مريم، مع أعظم مكتبة أسسها الإمبراطور ذاته، مع اثني عشر قصرا، وحقول وكروم وحديقة في وادي يهوشافاط.

وأمام المستشفى[2] سوق، يتوجب على كل بائع فيه أن يدفع إيجاراً سنوياً لصاحب المكان قطعتان ذهبيتان.

داخل هذه المدينة، إلى جانب أبنية أخرى، هناك أربع كنائس رئيسة، جدرانها متصلة مع بعضها البعض، واحدة إلى الشرق وبنيت على صخرة الجلجلة، وهي المكان الذي عثر فيه على صليب السيد، وتسمى كاتدرائية قسطنطين، والثانية إلى الجنوب، والثالثة إلى الغرب، وفي الوسط يوجد ضريح سيدنا، ونرى في حلبته تسعة أعمدة وبينها جدران مبنية من حجارة شديدة الإتقان.

أما الرابعة فهي النصب التذكاري، حيث جدرانه بما فيها حجر الطيب موضوعة أمام القبر، في المكان الذي تدحرج الملاك بعيدا، وجلس بعد قيامة السيد.

ليس من الضروري أن أتحدث أكثر عن هذا القبر،لأن القديس بي دي قد أعطى وصفاً شاملاً عنه في تاريخه. ومع ذلك يجب أن لا أتجاهل الحديث عن سبت فيض النور، الذي هو عشية عيد الفصح، حيث يجد الداخل إلى القبر قناديل كثيرة معلقة فوقه، فإذا كان صباح السبت السابق ليوم الفصح بدأت الصلاة في الصباح حتى إذا تمت، أنشد الكل بصوت رخيم يارب ارحم، واستمروا في ذلك حتى ينزل الملاك

---

(1) أنظر (Bede's Ecclesiastical History) القديس بي دي في التاريخ الكنسي، فصول الكتاب الخامس 16 و17.

(2) هناك ذكر لمستشفى القدس في المصادر القديمة، ومنها رحلة ناصر خسرو في أواخر العصر الفاطمي. (المحقق)

وينير القناديل المذكورة وعندها يتقدم البطريرك ويعطي لكل مطران حصته من هذا النور المقدس، ثم يسمح للشعب بأن ينير كل قنديله.

والبطريرك الآن يدعى ثيودوسيوس، وقد جرى انتخابه لتقواه حيث كان يقيم في دير يبعد عن القدس خمسة عشر ميلا، والبطريرك يتقدم على جميع المسيحيين في الأرض المقدسة.

وبين الكنائس الأربعة المذكورة يوجد فناء غير مسقوف، جدرانه تتلألأ بالذهب والأحجار الكريمة المرصوفة، و في وسط هذا المكان كله، نقطة يقال إنها ستكون منتصف العالم.

يوجد في المدينة علاوة على ذلك كنيسة أخرى على جبل صهيون، وتسمى كنيسة القديس سمعان، حيث غسل السيد أقدام تلاميذه، وفيها تاج الشوك.

وبالقرب من كنيسة سمعان باتجاه الشرق، توجد كنيسة أقيمت تكريما للقديس ستيفن، حيث المكان الذي يعتقد أنه قد تم فيه رشق السيد بالحجارة، وإلى الشرق كنيسة على اسم القديس بطرس.

في ذلك المكان، إلى الشمال من الهيكل يوجد كنيس يهودي فتحه المسلمون، وإلى الجنوب منه بوابات حديدية حيث استطاع ملاك الرب إخراج بطرس المسجون عبرها، والتي لم تفتح بعد ذلك أبداً.

بعد مغادرتنا للقدس انحدرنا باتجاه وادي يهوشافاط وهو على بعد ميل من المدينة. وهناك قرية الجثمانية حيث ولدت السيدة مريم العذراء.

داخل كنيسة القديسة مريم المستديرة يوجد ضريحها، وعلى الرغم من أنه لا يوجد أي سقف فوق الكنيسة إلا أنها لا تمطر عليها أبداً، وهناك أيضا كنيسة في المكان الذي تعرّض فيه سيدنا للخيانة، متضمنة أربع موائد مستديرة لعشائه، وفي وادي يهوشافاط كنيسة القديس ليون، في المكان الذي سيظهر فيه سيدنا يوم الدينونة الكبرى.

بعد ذلك ذهبنا إلى جبل الزيتون، من المنحدر... وعلى جانب من الجبل نفسه رأينا المكان الذي أتى فيه الفريسيون للسيد بالمرأة التي زنت، حيث توجد كنيسة تكريما للقديس يوحنا، ويتم الاحتفاظ بكتابة في الرخام تقول: هنا كتب سيدنا على الأرض[1].

على قمة الجبل وعلى بعد ميل من وادي يهوشافاط، مكان الصعود، في الوسط حيث المكان الذي صعد منه السيد، يوجد مذبح مفتوح على السماء، حيث يقام الاحتفال الجماهيري.

بد ذلك انتقلنا إلى بيت عنيا[2]، والتي تقع في جنوب المدينة، وفي صعودنا للجبل،على ارتفاع ميل واحد، هناك دير مع كنيسة تحتوي على قبر لعازر. وإلى

---

(1) من الواضح أن الحدث حسب إنجيل يوحنا وقع في معبد وليس في خلاء جبل الزيتون، ولا بد أن تكون الفكرة المذكورة في النص قد نشأت من قراءة خاطئة للآيات الأولى من إنجيل يوحنا، حيث يرد في الإنجيل المذكور 6: 8 {أما يسوع فانحنى إلى أسفل و كان يكتب بإصبعه على الأرض} ، هذه الكتابة على الأرض أدرجت كنصيحة في أسطورة شعبية خلال العصور الوسطى، والتي تقول إن كتابة المسيح على الأرض تمثل الخطايا السرية لكل الأشخاص الذين تجمعوا لإدانة المرأة، وهذا كما قيل كان السبب الذي جعلهم جميعاً يشعرون بالخجل.

(2) بيت عنيا، اسم آرامي معناه مكان العناء والمعاناة وهي قرية إلى الجنوب الشرقي من جبل الزيتون على بعد ميلين من القدس تقريبًا، وتدعى الآن العيزرية وهي قرية صغيرة مبنية على أكمة صخرية عسرة المسالك. (المحقق)

الشمال ثمة بركة، وهي التي غسل لعازر نفسه فيها بعد أن قام من بين الأموات بأمر من سيدنا، ويقال إنه أصبح مطراناً لمدينة أفسس فيما بعد لأربعين عاماً.

على المنحدر الغربي من جبل الزيتون يظهر الرخام حيث نزل السيد راكباً على ظهر الجحش، بين الجموع. وإلى الجنوب في وادي يهوشافاط توجد بركة سلوان.

عندما غادرنا القدس في الطريق إلى بيت لحم الواقعة على بعد ستة أميال حيث ولد سيدنا، عرض لنا مكان حبقوق النبي، عندما أمره ملاك الرب أن يحمل غداءه لدانيال في بابل التي كان يحكمها نبوخذنصر..

في بيت لحم هناك كنيسة كبيرة جداً تكريما للقديسة مريم، في الوسط يوجد سرداب تحت صخرة.

مدخله من الجنوب ومخرجه من الشرق، ويظهر المذود الذي وضع فيه سيدنا على الجانب الغربي من السرداب. ولكن المكان الذي بكى السيد فيه إلى الشرق وفيه المذبح حيث احتفلت الجموع. وبالقرب من هذه الكنيسة إلى الجنوب ثمة كنيسة الأطفال الأبرياء. وعلى بعد ميل واحد من بيت لحم يوجد دير الرعاة المقدس[1]..

وأخيراً، وعلى بعد ثلاثين ميلاً شرقي القدس يوجد نهر الأردن حيث دير القديس يوحنا، وهناك مساحة فيها العديد من الأديرة من بينها، وعلى بعد ميل واحد جنوبي مدينة القدس، تقع كنيسة ماملا والتي فيها الكثير من جثامين الشهداء الذين قتلوا ودفنوا فيها بعناية.

---

(1) يقع هذا الدير في مدينة بيت ساحور التابعة لبيت لحم. (المحقق)

عدنا من مدينة القدس المقدسة مباشرة إلى البحر، وأخذنا سفينة وأبحرنا لمدة ستين يوماً، واجهنا فيها مخاطر عظيمة نتيجة الرياح. ومن فورنا هبطنا إلى دير مونس الذهبية (Mons Aureus)[1]، وهو سرداب فيه سبعة مذابح، وفوقه غابة كبيرة، والسرداب مظلم جداً لدرجة أنه لا أحد يستطيع دخوله دون مصابيح. رئيس الدير هناك دوم فلانتاين. ثم ذهبنا من هناك إلى روما.

داخل المدينة من جهة الشرق كنيسة يوحنا لاتيران وهي حسنة البناء تكريما للقديس يوحنا المعمدان، وفيها مقر البابا، وهناك في كل عام تحمل المفاتيح للبابا من كل جزء من المدينة.

في الجزء الغربي من روما تقع كنيسة القديس بطرس رئيس الرسل حيث ترقد روحه بسلام، ومساحتها لا تضاهيها مساحة أي كنيسة في العالم، وتحتوي على مجموعة متنوعة من النفائس والزخارف، إنها مدينة تسكن فيها أرواح القديسين التي لا تحصى.

هنا انفصلت عن أصحابي، وتوجهت لأعلن ابتهالاتي للقديس ميخائيل بنفسي[2]، وهو مكان يقع على جبل ويمتد بطول فرسخين في البحر. في قمة هذا الجبل كنيسة تكريما للقديس مايكل. الجبل يتعرض للمد والجزر مرتين كل يوم، في الصباح والمساء، والرجال لا يستطيعون الذهاب إلى الجبل حتى يتراجع البحر، ولكن في عيد القديس ميخائيل لا يحيط البحر بالجبل عندما يأتي المد، ولكنه يقف مثل الجدران إلى اليمين واليسار، حتى في ذلك اليوم جميع الذين يرغبون في أداء

---

(1) يعتقد أن اسمها الآن مونتيدورو، وهي بلدة في جزيرة صقلية. (المحقق)

(2) بل سانت ميشيل، على ساحل بريتاني، الذي كان يسمى عادة سانت ميشيل إعلان الابتهال، وكان مكانا ذو شهرة كبيرة في الحقبة الرومانسية، وكذلك في الأساطير الدينية خلال العصور الوسطى. ومن المحتمل أنه تأسيس قبل الدير...

عباداتهم يمكن أن يعبروا في أي ساعة من النهار، حيث لا يمكنهم فعل ذلك في بقية الأيام، رئيس الدير يدعى فينيمنتيوس البريتوني.

والآن سأقول لكم كيف أن المسيحيين حافظوا على شريعة الله في كل من القدس ومصر.

إن المسلمين والمسيحيين في القدس ومصر على تفاهم تام، حتى أنني إذا سافرت ونفق في الطريق جملي أو حماري، وتركت أمتعتي مكانها وذهبت لاكتراء دابة من البلدة المجاورة عدت فوجدت كل شيء على حاله لم تمسه يد. فقانون الأمن العام في تلك الديار يقضي على كل مسافر بالليل أن يكون بيده وثيقة تبين هويته فإذا عدمها زُجّ في السجن حتى يحقق في أمره ويثبت أنه ليس جاسوساً.

في بينيفينتوم ذبح الناس أميرهم سيشارد[1] بفخر، وألحقوا ضررا كبيرا في العقيدة المسيحية، وكانت هناك مشاجرات وادعاءات فيما بينهم، حتى أصبح لويس، شقيق لوتير وشارلمان، إمبراطورا عليهم، وفي رومانيا ترتكب العديد من الجرائم، والناس هناك سيئي الطباع، واللصوص في كل مكان، ولا أحد يستطيع الذهاب إلى روما لزيارة القديس بطرس، إذا لم ينضم إلى جماعة تنتقل وهي مسلحة.

وفي لومبارديا في عهد لويس سالف الذكر هناك سلام مقبول نوعاً ما، وبين البريتونيين سلام أيضاً.. وهناك عُرْفٌ أنه إذا جرح أحدهم آخر، يأتي ثالث ويتناول قضية المصاب كما لو كان جاره، وإذا ثبت أن أي فرد قد سرق أكثر من أربعة دراهم، فإنه يقتل، أويتم تعليقه على حبل المشنقة.

---

(1) كان Sichard طاغية قاس وظالم، وكان مكروهاً من قبل رعاياه. وبعد أن حاول التحرش بزوجة أحد النبلاء، ثار شعب بينيفينتوم واقتحموا قصره وذبحوه في أواخر عام 839م. وقد أدى هذا العمل إلى فترة من الاضطرابات الداخلية.

وأود أن أضيف، في الختام، أننا رأينا في قرية الجثمانية تكعيب الرخام بدقة تجعل المرء يرى أي شيء يحبه من خلاله وكأنه الزجاج.

مصادر ومراجع

- أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، جمع الشيخ الإمام العالم الفاضل الكامل الأديب الأريب المقتن المؤرخ شمس الدين أبي عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر البناء الشامي المقدسي المعروف بالبشاري، نشرة دي خوييه، ليدن بهولاندا، 1875م ونشرة ثانية كاملة في ليدن بالعربية ضمن سلسلة المكتبة الجغرافية العربية عام 1906م.

- الخراج وصناعة الكتابة، شرحه وعلق على حواشيه الدكتور محمد حسن الزبيدي، وزارة الإعلام العراقية، دار الرشيد ببغداد 1981 ميلادية.

- الكتاب العزيزي، المسالك والممالك، للحسن بن احمد المهلبي، جمعه وحققه وعلق عليه تيسير خلف، دار التكوين، دمشق 2006.

- المسالك والممالك لابن خرداذبة نشرة المستشرق دي خوييه ليدن- هولاندا 1889 ميلادية.

- تاريخ الأمم والملوك للإمام أبى جعفر محمد بن جرير الطبري. قوبلت هذه الطبعة على النسخة المطبوعة بمطبعة بريل بمدينة ليدن في سنة 1879 م. راجعه وصححه وضبطه نخبة من العلماء الأجلاء. وطبعة دار المعارف بمصر 1966م، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم.

- تاريخ مصر من بدايات القرن الأول الميلادى حتى نهاية القرن العشرين، أعداد وتحقيق عبد العزيز جمال الدين، من خلال مخطوطة (تاريخ البطاركة) لساويرس بن المقفع. الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة 2012.

- تاريخ الرهاوي المجهول، الجزء الثاني، تعريب ألبير أبونا، بغداد.

- تاريخ الرهاوي المجهول، بالسريانية، طبعة دير مار أفرام السرياني في هولندا 2004.

- تاريخ الزمان لابن العبري، تعريب اسحق أرملة، دار المشرق، بيروت 1986م.

- تاريخ الزوقنيني المنحول لديونيسيوس التلمحري، سهيل قاشا، منشورات المكتبة البولسية، بيروت 2006م.

- تاريخ اليعقوبي، أحمد بن يعقوب بن جعفر بن وهب الكاتب المعروف بابن واضح الإخباري المتوفى بعد سنة 292 للهجرة، الجزء الأول، من نشريات المكتبة المرتضوية في النجف 1358 هجرية.

- تاريخ بغداد أو مدينة السلام، للحافظ أبي بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي، مكتبة الخانجي بالقاهرة والمكتبة العربية ببغداد ومطبعة السعادة بجوار محافظة مصر، 1349 هجرية1931 ميلادية.

- تاريخ خليفة بن خياط العصفري (ت: 240 ه - 854 م) رواية بقي بن خالد، حققه وقدم له الأستاذ الدكتور سهيل زكار، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.1993 م/ 1414.

- تاريخ ميخائيل الكبير، الجزء الثاني، تعريب مار غريغوريوس صليبا شمعون، دار ماردين، حلب 1996.

- تقويم البلدان لأبي الفداء، تحقيق المستشرقان الفرنسيان رينود والبارون ماك كوكين ديسلان، المطبعة الملكية بباريس1840.

- شذرات الذهب في أخبار من ذهب، ابن العماد الحنبلي، تحقيق :مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت 1998.

- صورة الأرض لمحمد بن علي النصيبي البغدادي والموصلي الأصل، المعروف بابن حوقل، دار مكتبة الحياة، بيروت، 1979.

- فتوح البلدان لحمد بن يحيى البلاذري، تحقيق د. صلاح الدين المنجد، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة 11956-1957.

- قاموس الكتاب المقدس، المطبعة الاميركانية، جورج بوست، 1894.

- مروج الذهب ومعادن الجوهر لعلي بن الحسن المسعودي، طبعة دار المعرفة، بيروت عام 1982.

- معجم البلدان، لياقوت الحموي، طبعة مكتبة الأسدي، طهران 1965م.

- معجم بيت بيتا (كتاب البيت)، بنيامين حداد، دار المشرق الثقافية، دهوك 2010.

- SCRIPTORS SYRI, VERSIO, DOCUMENTA, I.-B. CHABOT. LOVANII. MDCCCCXXXIII.

فهارس الأعلام والأقوام والأماكن

فهرس الأعلام

فهرس الأقوام

فهرس الأماكن

هذا الكتاب

ينفرد هذا النص الذي تركه البطريرك السرياني ديونيسيوس التلمحري المعاصر لأربعة خلفاء من بني العباس، هم هارون الرشيد، ومحمد الأمين، وعبد الله المأمون، وأبي إسحاق محمد المعتصم، بأنه الشهادة المعاصرة الوحيدة المكتشفة على الكثير من الوقائع والأحداث التاريخية المفصلية، والتي دونت وقائعها في كتب التاريخ العربية نقلاً عن روايات شفهية بعد عقود طويلة، لعل أقربها ما دونه خليفة بن خياط العصفري في تاريخه المسمى "تاريخ خليفة بن خياط"، أو أبو جرير الطبري في كتابه المسمى "تاريخ الرسل والملوك"، أو أحمد بن أبي إسحاق اليعقوبي في تاريخه المسمى "تاريخ اليعقوبي". والتلمحري قام بثلاث رحلات إلى بغداد ورحلتين إلى مصر، دوَّن وقائعها بشكل متفاوت. وبينما أسهب في رحلتيه إلى مصر بذكر أوصاف الأماكن التي زارها، وتحدث عن بعض العادات التي عاينها لدى المصريين، نجده في رحلاته إلى بغداد وبلاد الجزيرة، مشغولاً بالقضايا الرعوية والصراعات المحتدمة في الكنيسة السريانية.

ولئن ضمّن البطريرك أخبار رحلاته في تاريخه الذي وضعه في جزئين، متناولاً أخبار الدولتين العربية الإسلامية والبيزنطية بالإضافة إلى أخبار الكنيسة، فإن الجزء

المتعلق بشهادته الشخصية على أحداث زمنه، امتاز بعدد من المزايا التي جعلته واحداً من أرفع النصوص السريانية وأكثرها صدقاً وحرارة.

وقد اختارت لجنة التحكيم هذا الكتاب لينال عنه محققه "جائزة ابن بطوطة- فرع تحقيق المخطوطات والنصوص الكلاسيكية في دورتها الجديدة للعام 2013-2014.، أولا من زاوية اختيار النص وثانيا للدقة العلمية التزم بها الباحث وسعة الاطلاع التي عكسها عمله.

لجنة التحكيم

فهرس المحتويات



JOURNEYS OF A SYRIAN PATRIARCH

رحلات البطريرك
ديونيسيوس التلمحري
في عهد الخليفتين المأمون والمعتصم

ينفرد هذا النص الذي تركه البطريرك السرياني ديونيسيوس التلمحري المعاصر لأربعة خلفاء من بني العباس، هم هارون الرشيد، ومحمد الأمين، وعبد الله المأمون، وأبي إسحاق محمد المعتصم، بأنه الشهادة المعاصرة الوحيدة المكتشفة على الكثير من الوقائع والأحداث التاريخية المفصلية، والتي دونت وقائعها في كتب التاريخ العربية نقلاً عن روايات شفهية بعد عقود طويلة، لعل أقربها ما دونه خليفة بن خياط العصفري في تاريخه المسمى "تاريخ خليفة بن خياط"، أو أبو جرير الطبري في كتابه المسمى "تاريخ الرسل والملوك"، أو أحمد بن أبي إسحاق اليعقوبي في تاريخه المسمى "تاريخ اليعقوبي". والتلمحري قام بثلاث رحلات إلى بغداد ورحلتين إلى مصر، دوّن وقائعها بشكل متفاوت. وبينما أسهب في رحلتيه إلى مصر بذكر أوصاف الأماكن التي زارها، وتحدث عن بعض العادات التي عاينها لدى المصريين، نجده في رحلاته إلى بغداد وبلاد الجزيرة، مشغولاً بالقضايا الرعوية والصراعات المحتدمة في الكنيسة السريانية.

ولئن ضمّن البطريرك أخبار رحلاته في تاريخه الذي وضعه في جزئين، متناولاً أخبار الدولتين العربية الإسلامية والبيزنطية بالإضافة إلى أخبار الكنيسة، فإن الجزء المتعلق بشهادته الشخصية على أحداث زمنه، امتاز بعدد من المزايا التي جعلته واحداً من أرفع النصوص السريانية وأكثرها صدقاً وحرارة. وقد اختارت لجنة التحكيم هذا الكتاب لينال عنه محققه "جائزة ابن بطوطة- فرع تحقيق المخطوطات والنصوص الكلاسيكية في دورتها الجديدة للعام 2013-2014.، أولا من زاوية اختيار النص وثانيا للدقة العلمية التي التزم بها الباحث وسعة الاطلاع التي عكسها عمله ■




ISBN 978-614-419-358-7
9 786144 193587





